﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ٢٧ فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ٢٨ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ٢٩ وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ٣٠ وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ ٣١ وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ٣٢ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ٣٣ وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ ٣٤ إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ٣٥ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ٣٦ عُرُبًا أَتۡرَابًا ٣٧ لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ٣٨ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٩ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ٤٠﴾ [الوَاقِعَة: 27 - 40]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتقال في مقامات أهل الجنّة من صفوة السّابقين إلى ثُلّة أصحاب اليمين

لَمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقة نعيمَ السّابقين، وفُصِّلَ ذِكرُهم، وذُكِرَ جَزاؤُهُم في جَنّاتِ النَّعيم، ناسبَ الانتقالُ إلى الصِّنف الثّاني من أهلِ الجنَّةِ السّابقِ ذكرُهم، وهم أصحابُ اليَمين، ليَستبينَ مَقامُهُم ويَتَجلَّى نَعيمُهُم، فهوَ تَرقيمٌ بَيانيٌّ يَنتَقِلُ فيه السّياقُ من فصلٍ إلَى آخر، ومِن عَلوٍّ إلَى دونِه، في سُلَّمِ القُربِ والذِّكرِ.

والمُناسَبَةُ في ذَلِكَ جَليَّةٌ، إذِ السّورَةُ في أصلِ مَقاصِدِها تَهدِفُ إلَى تَفصيلِ مَصيرِ النّاسِ في الدّارِ الآخِرَةِ على مَقاماتٍ ثَلاثَةٍ: السّابِقونَ، وأصحابُ اليَمينِ، ثمّ أصحابُ المَشأمَةِ، وإذ قَد تَقَدَّمَ ذِكرُ جَزاءِ السّابقينَ في نَعيمِهِم، كانَ مِنَ البَيانِ الحَسَنِ أن يُبَيَّنَ ما أُعِدَّ لِأصحابِ اليَمينِ، وذَلِكَ في ذِكرِ أنواعِ النَّعيمِ الحِسّيِّ في جَنّاتِهِم، مِن سِدرٍ مَخضودٍ، وطَلحٍ مَنضودٍ، وظِلٍّ مَمدودٍ، وماءٍ مَسكوبٍ، وغَيرِ ذَلِكَ مِمّا يُشَوِّقُ النَّفسَ ويَبعَثُها على الرَّغبَةِ في دَرَجَةِ أصحابِ اليَمينِ إن لَم تُدرك دَرَجَةَ السّابِقينَ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَّخۡضُودٖ﴾: المخضود: الَّذي لا شوك له، كأنَّما خُضِدَ شوكُه[1].

وعن مجاهد: الموَقَّر الَّذي تُثْنَى أغصانُه لكثرة حَمْله، من خضد

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 461.

الغصن[1]. ولفظة ﴿مَّخْضُودٍ﴾ مأخوذة من الفعل (خَضَدَ)، يقال: خَضَدَ الشَّوكَ يخضِدُه خَضدًا، إذا قطعه وأزاله[2]. والخَضد في أصل معناه: القطع من أطراف الشَّيء وإزالة ما فيه من أذًى. وبهذا؛ فإنّ السِّدر المخضود هو شجر النَّبِق الَّذي قُطِعَ شوكه، فصار ناعمًا لا أذى فيه، باقٍ ظلّه وثمره وزينته، منزوعٌ عنه كلُّ ما يُنغّص أو يُؤلم، فالمعنى المعجميُّ لكلمة ﴿مَّخْضُودٍ﴾ يدلّ على حالةٍ من التَّهذيب الطَّبيعيِّ، حيث يُبقي اللّه من الشَّجر ما يُنتفَع به ويُزيل ما يُؤذي، وذلك تمام النِّعمة، وصورة من صور اللُّطف الإلهيِّ، فالإنسان في الجنَّة لا يُؤذى حتَّى بشوكة.

2) ﴿وَطَلْحٍ﴾: الطَّلح جنسٌ من الشجر[3]، يُطلق على شجرٍ كثيرِ الظِّلال، عظيمِ الورق، ويُراد به غالبًا شجرُ الموز. وقد ذهب جمهور المفسّرين إلى أن المقصود بـ(الطَّلح) هنا هو شجرُ الموز، "وقيل: هو شجر حَسَن اللّون لخضرته، له رفيف ونور طيب، فخوطبوا ووعِدوا بما يحبّون وذلك لكثرة ظِلِّه"[4]، لما ورد في سياق التَّنعم والنَّعيم لأصحاب اليمين، وقد قرنت الآية بين ﴿سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ و﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾، ممّا يوحي بأنَّه من صنوف النَّعيم اللَّذيذ والثَّمر الطَّيِّب.

3) ﴿مَّنضُودٍ﴾: معنى (نضد) رتّب الشَّيءَ وصفَّه بعضه فوق بعض[5]. على وجه التَّناسق والامتداد[6]، فيُقال: نَضَدَ المتاعَ إذا وضعه منسّقًا، كالرُّطب في الطَّبق أو الكتب على الرَّفِ. وجاءت هنا صفةً لـ(الطَّلح)، وهو عند جمهور المفسّرين شجرُ الموز، لما يحمل من ثمرة لذيذة ظلالها وافرة، وهو على خلاف طلح البادية الشّائك الَّذي لا يناسب مقام الإنعام، فصار المراد بـ(الطَّلح المنضود) شجرًا كريمًا طيِّب الثِّمار، كثيرها، لا يحتاج من الآكل جهدًا ولا عناءً في تناولها.

وقوله ﴿مَّنضُودٍ﴾ يُراد به أنَّ هذه الثِّمار مرصوصة، مصطفّة، مترتّبة ترتيبًا بديعًا،

(1) مجاهد، تفسير مجاهد: 1/ 641.
(2) الخليل، العين: (خضد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طلح).
(4) السمين الحلبي، عمد الحفّاظ: (طلح).
(5) الخليل، العين، والزّمخشريّ أساس البلاغة: (نضد).
(6) الزّمخشريّ أساس البلاغة: (نضد).

كأنَّها عناقيدُ من الذَّهب، أو كأنَّها عِذق من الرّطب قد أُعدّ إعدادًا، فلا تعبَ في قطافه، ولا حاجة لتسلّق ولا تقطيع، بل هو بين يديك، يتدلّى ويتزيّن، فهو كمال النِّعمة في ثمرها وهيئتها، وسهولة نيلها.

4) ﴿عُرُبًا﴾: العُرُب جمع (عَروب)، وهي المرأة المتحبّبة إلى زوجها، الحَسَنة التَّبعُّل، الَّتي تُظهر له الودّ والأنس برغبةٍ ورضًا، لا تكلُّفًا ولا تصنّعًا[1]. فليست الصِّفة متعلّقةً بالجمال الظّاهريِّ فقط، بل بجمال النَّفس والعِشرة. وجاء هذا الوصف في سياق النَّعيم الكامل لأصحاب اليمين، ليُفهم أنَّ نساء الجنّة قلوبُهنَّ معلَّقة بأزواجهنّ محبةً ومودّة، فيكون النَّعيم شاملًا للبدن والرّوح.

5) ﴿أَتْرَابًا﴾: (ترب) له أصلان؛ إحداهما تساوي الشيئين؛ قال ابن فارس: "فالتِّرْبُ الخِدْنُ، والجَمْع أتراب، ومنه التّريب، وهو الصَّدْر عند تساوي رؤوس العظام"[2]، ولفظة ﴿أَتْرَابًا﴾ هي جمع (تِرب)، والتِّرب في لسان العرب هو النَّظير في السّنّ، والمساوي في العُمر[3]، يقال: (هو تِربي) أي في مثل سِنّي، سواء في الطُّفولة أو الكِبَر، ولا يُطلق إلّا على مَن تقارَب في السِّنّ تقاربًا شديدًا.

فـ﴿أَتْرَابًا﴾ تعني: نساءً متساوياتٍ في السِّنِّ، متقاربات في العمر، لا تفاوت في أعمارهنّ يُنفّر، ولا فوارق تُفسد الأُنس والمساكنة، وقد ذُكرت هذه الصِّفة بعد قوله تعالى: ﴿عُرُبًا﴾، أي متحبّبات إلى أزواجهنّ، ليُفهم أنَّهنّ كذلك في العمر مع أزواجهنّ، فلا أحد يُعاني فجوة العمر ولا تفاوت الميول، بل كلُّ واحدة منهنَّ هي قَرينَةُ زوجِها في السِّنّ، كأنّها صُنعت له خِلقةً وسنًّا وروحًا.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تَفتَتِحُ هذِهِ الآياتُ الكَريمَةُ مَقامَ الثَّناءِ عَلى أصحابِ اليَمينِ، وهُم مَن رَجَحَت حَسَناتُهُم على سَيِّئاتِهِم، فأُدخِلوا الجَنَّةَ برَحمَةِ اللّه وعَمَلِهِمُ الصّالِحِ، ويُبدَأُ ذِكرُهُم بكَلِماتٍ توحي بالتَّفخيمِ والتَّهويلِ، فيُقالُ: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾، أي: أيُّ شَيءٍ يُدريكَ ما هيَ مَنزِلَتُهُم؟ وما عِظَمُ نَعيمِهِم؟.

(1) ابن عبّاس، مسائل نافع بن الأزرق، ص: 166.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ترب).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (ترب).

نعيم أصحاب اليمين بين إشراق التَّمهيد وجمال التَّفصيل

ثُمَّ يَتَرَتَّبُ على هَذا التَّمهيدِ وصفٌ مُتَتابِعٌ لِجَنّاتِهِم، فهُم في جَنّاتٍ فيها سِدرَةٌ مَخضودَةٌ، وهيَ شَجَرَةُ النَّبَقِ الَّتي نُزِعَ شَوكُها، وطَلحٌ مَنضودٌ، وهوَ المَوزُ، قَد نُظِمَت ثِمارُهُ وتَزاحَمَت، فهيَ لا تَفتُرُ ولا تَنقَطِعُ، ويُظَلِّلُ ذلِكَ كُلَّهُ ظِلٌّ مَمدودٌ، لا يَزولُ، ولا تَنالُهُ شَمسٌ، ويُسقَونَ مِن ماءٍ مَسكوبٍ، يَجري بانسيابٍ في سُهولَةٍ، لا تَكَدُّرَ فيهِ، ولا عَنَتَ، ولَهُم في تِلكَ الجَنّاتِ فاكِهَةٌ كَثيرَةٌ، وصفُها أنَّها ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾، أي: دائِمَةٌ مُتَواصِلَةٌ، لا تَنقَطِعُ بفَصلٍ، ولا تُحجَبُ بمَنعٍ، فهيَ مَوجودَةٌ حاضِرَةٌ كَيفَ شاءوا، ويَجلِسونَ في على فُرُشٍ مَرفوعَةٍ، في رَفعَةِ مَكانٍ ورِقَّةِ مَهبِطٍ، تَليقُ بكَرامَةِ مَن نَزَلَ عَلَيها.

ثُمَّ يَنتَقِلُ الوَصفُ إلى أزواجِهِم، فيَقولُ: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾، أي خَلَقناهُنَّ خَلقًا جَديدًا، بَديعَ الصّورَةِ، خاليًا مِن كُلِّ نَقصٍ، ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾، لا يُذهِبُ الوَقتُ طُهرَهُنَّ، ولا يَمَسُّهُنَّ فناءٌ. ﴿عُرُبًا﴾ أي: مُتَوَدِّداتٍ لِبُعولِهِنَّ، ﴿أَتْرَابًا﴾ أي: في سِنٍّ واحِدَةٍ، حَتَّى يَكتَمِلَ الأُنسُ ويَستَقِرَّ الوُدُّ، وكُلُّ ذلِكَ خاصٌّ بأصحابِ اليَمينِ، وهُم ثُلَّةٌ مِنَ الأوَّلينَ، أي: كَثيرونَ في القُرونِ السّابِقَةِ، وثُلَّةٌ مِنَ الآخِرينَ، وهوَ تَبشيرٌ لِهذِهِ الأُمَّةِ أنَّ خَيرَها مَشمولٌ في النَّصيبِ، وأنَّ رَحمَةَ اللهِ لا تُفَضِّلُ الزَّمانَ، ولَكِنَّها تُنَزَّلُ على مَن عَمِلَ وأخلَصَ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ نشرِ ما وقع لفُّه سابقًا:

تفصيل المجملات ونشر اللَّفِّ يقع موقعَ القبولِ في نفسِ المتلقّي لكشف قناع الغيب

في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾، بلاغة النَّشرِ بعدَ اللَّفِّ، على وجهٍ يُثيرُ النَّفسَ، ويستنهضُ الفكرَ، ويبعثُ الشَّوقَ إلى التَّدبُّرِ؛ فقد طُرِحَ اسمُ ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ أوّلًا على جهةِ اللَّفِّ والإجمالِ، ثمّ أعقبهُ بالاستفهامِ التَّعجُّبيِّ ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾؟؛ ليُثيرَ في الذِّهنِ تساؤلًا عن مقامِهم ونعيمِهم، قبلَ أن يُشرَعَ في نشرِ ما لفَّهُ الاسمُ، وبسطِ ما انطوى عليهِ من الكرامةِ

والمنزلةِ، أي: بسطُ الصِّفاتِ والنَّعيمِ بعدَ أن جُمعت تحتَ مسمًّى واحدٍ، وهو ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾. فجاء ذكرُ السِّدرِ المخضودِ، والطّلحِ المنضودِ، والظِّلِّ الممدودِ، والماءِ المسكوبِ، والفاكهةِ الكثيرةِ، وكلُّ ذلك تفصيلٌ لما أجملَهُ العنوانُ الأوّلُ.

نوع الواو ودلالتها:

عطفُ القصّة على القصّة بلاغةٌ جامعةٌ بين المشترك الكلّيّ والانفراد الذّاتيّ

الواو في قَولِهِ تعالى: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾ واو عطف لجملة ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾ على جملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ وهي من عطف القصَّة على القصَّة[1]، وهذه الواو وظيفتها جامعةٌ بين أمرين؛ عطف مجموعٍ كلّيٍّ على آخر يشترك معه في قاسمٍ، وهنا الاشتراك يقع في المصير، والإشعار بأنَّ ما بعدها يأخذ حكم الاستقلال عمّا قبلها، فهي تُشيرُ إلى تَجديدِ الكَلامِ، وفَتحِ بابٍ ثانٍ مِنَ التَّنويعِ في الذِّكرِ، فبَعدَ أن فُصِّلَ نَعيمُ المُقَرَّبينَ، شُرِعَ في تَفصيلِ نَعيمِ أصحابِ اليَمينِ، عَلى سَبيلِ التَّدَرُّجِ في رُتَبِ السَّعادَةِ.

نكتة استعمال لفظ (الأصحاب):

الصُّحبةُ ملازمةٌ دائمةٌ تُنبئ عن الاختيار لا الاضطرار

استعمال اللَّفظِ (الأصحاب) في قَولِهِ تعالى: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾ دونَ أن يَقولَ: (أهلُ اليَمينِ) مُشعِرٌ بالمُصاحَبَةِ، وهيَ صِلَةٌ تَنبَني عَلى اللُّزومِ والاقترانِ المُطَّرِدِ، فصاحِبُ المَكانِ مَن ألِفَهُ ولازَمَهُ، وصاحِبُ اليَمينِ مَن أصبَحَ مَقرونًا بها في سُلوكِهِ ومَصيرِهِ؛ فكَأنَّهُ لا يُعرَفُ إلّا بها، ولا تُعرَفُ إلّا بِهِ.

وَأمّا لَفظُ (أهلُ) فهوَ في الاستِعمالِ أوسَعُ، وقَد يُطلَقُ عَلى مَن يَنتَسِبُ إلى شَيءٍ نَسَبًا وثيقًا أو رَخوًا، فهوَ يَصدُقُ على المُقيمِ في مَكانٍ، وعلى مَن لَهُ انتِماءٌ نَسَبيٌّ أو تاريخيٌّ، ولَكِنَّهُ لا يَلزَمُ فيهِ التَّلاصُقُ والمُصاحَبَةُ الدّائِمَةُ.

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 298.

فاختيارُ (أصحابُ اليَمين) يُفيدُ أنَّهُم قَد اقتَرَنوا باليَمين اقترانًا حَقيقيًّا، في النّيَّةِ والعَمَلِ والمآلِ، فهُم أهلُ مَنازِلِها، وخُلَصاءُ طَريقِها، بَل هيَ قَد صارَت لَهُم هويَّةً لا تُفارِقُهُم؛ لأنَّهُ يَستَحضِرُ في الذِّهنِ مَعنَى المُلازَمَةِ والمُناسَبَةِ التّامَّةِ، الَّتي تُشَكِّلُ مِفتاحَ نَجاةِ هؤُلاءِ، وتُعَبِّرُ عَن عَلاقَتِهِم الوَثيقَةِ بالخَيرِ والثَّوابِ.

دلالة العدول عن لفظِ (الميمنة) إلى ﴿ٱلۡيَمِينِ﴾:

عدل النّظم الكريم في قَولِهِ تعالى: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾، عن التَّعبير بالميمنة الَّتي بدأ بها السّياق في قَوله تَعالى: ﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾، وهو عدولٌ قُصِد به تخصيص موضع الإجمال بالميمنة الَّتي تحمل دلالة الجهة، وفي موضع التَّفصيل باليمين الَّذي يحمل دلالة اليُمن والبركة، فلفظ ﴿ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ في الآياتِ الأوَل جاءَت عَلى سَبيلِ التَّقسيم الثُّلاثيِّ الَّذي فيهِ: السّابِقونَ، وأصحابُ المَيمَنَةِ، وأصحابُ المَشأمَةِ، فكانَت ﴿ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ هُناكَ مُناسِبَةً لِبنيَةِ التَّقابُلِ مَعَ (المَشأمَةِ)، فهُم أصحابُ الجِهَةِ المُبارَكَةِ، في مُقابِلِ أصحابِ الجِهَةِ النَّحِسَةِ.، وأمّا هنا - والسّياق للإجمال، والتَّفصيلِ في الجزاء والمآل - فجاء مناسبًا لليُمن والبركة والخير العظيم الذي يعمُّهم في مقابلة الشِّمال الذي يُنبئ عن الشَّر المستطير الذي يَحيقُ بقسيمهم - الكفّار - وينتظرهم في مآل أمرهم.

انتقالٌ من جهة التَّقسيم الإجماليّ إلى مقام التَّشريف التَّفصيليّ

دلالة التَّعريف بالإضافة:

عُرِّف (أصحابُ اليَمين) بالإضافةِ، وهيَ إضافَةٌ في اللَّفظِ، وتَعريفٌ في المَعنَى، وفي هذِهِ الصّيغَةِ ما يُفيدُ التَّخصيصَ والتَّشريفَ، فهيَ لَيسَت كَأيِّ إضافَةٍ عارِضَةٍ، بَل هيَ تَسميَةٌ قارَّةٌ وهويَّةٌ مُتَمَكِّنَةٌ، فالتَّعريفُ في (أصحابُ اليَمين) إمّا أن يَكونَ لِلعَهدِ الذِّهنيِّ، أي: لِلفِئَةِ المَعروفَةِ في نَفسِ السّامِعِ أنَّها أهلُ السَّعادَةِ

أصحاب اليمين صحبةٌ موصلةٌ وملازمةٌ عريقةٌ

والفَوزِ، وإمّا أن يَكونَ لِلجِنسِ، أي: لِكُلِّ مَن كانَ مِن هذِهِ الزُّمرَةِ، وعَلى التَّقديرَينِ، فالإضافَةُ تُقَرِّرُ اِقترانَهُم اقترانَهُم باليَمينِ اقترانًا تامًّا، لا يَكونُ بمُجَرَّدِ الظّاهِرِ، ولا بمُجَرَّدِ اللَّفظِ، بَل بأصالَةِ الوَصفِ وحَقيقَةِ المَقامِ.

والتَّعريف في مَوضِعِهِ هَذا يُفيدُ تَعظيمَ المُعَرَّفِ؛ لِأَنَّهُ قَد صارَ عَلَمًا عَلى طائِفَةٍ بالغةٍ في الكَرامَةِ مَبلَغًا لا يُشاكِلُهُ غَيرُهُ، وفي هَذا تَثبيتٌ لِلمَكانَةِ وتَجليلٌ لِما هُم فيهِ مِنَ الجاهِ والجَزاءِ. فتكون الإضافة بمعنى (في) وذلك إذا كان المضافُ إليه ظرفًا واقعًا فيه المضاف[1].

نكتة استعمال أداة ﴿مَآ﴾:

تفخيمُ صفاتِ (أصحاب اليمين) وإبرازُ أثرِها في مصيرِهم

آثر النّظم الكريم الاستفهام بأداة ﴿مَآ﴾ في قَولِهِ تعالى: ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾ دون الاستفهام بـ (مَن)؛ وذلك لأنَّه يُرادُ بها التَّعظيمُ والتَّفخيمُ لصفات أصحابِ اليمين، لِأَنَّ السُّؤالَ لَيسَ عَن ذَواتِ الأصحابِ، بَل عَن شَأنِهِم وخَبَرِهِم وأمرِهِم العَجيبِ. فـ ﴿مَآ﴾ في اللُّغَةِ تُستَعمَلُ لِلسُّؤالِ عَنِ الحالِ والصِّنفِ والشَّأنِ، كَقَولِكَ: ما زَيدٌ؟ تُريدُ: ما خَبَرُهُ؟ وما شَأنُهُ؟ ولَيسَ: مَن هوَ؟ فقَولُهُ تعالى: ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾، هوَ بمَعنَى: أيُّ شَيءٍ عَظيم يَكونُ شَأنُهُم؟ وكَيفَ يُتَصَوَّرُ قَدرُهُم؟ و"جملة ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾ خبر عن (أصحاب اليمين) بإبهامٍ يفيد التَّنويهَ بهم"[2].

بلاغة الاستفهام وغرضه:

تعظيم أصحاب اليمين وتفخيم شأنهم والتّنويه بمصيرِهم

أفاد الاستفهام في قَوله تعالى: ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾ التَّهويلَ والتَّفخيمَ، وأعلَى مَدحَهُم لِتَعظيمِ جَزائِهِم[3]، وهوَ ضَربٌ مِنَ الاستفهامِ يُساقُ لِإثارَةِ التَّأمُّلِ وجَذبِ الانتِباهِ، لا لِطَلَبِ مَعرِفَةٍ

(1) السّامرائيّ، معاني النّحو: 3/ 102.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 298.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 408.

مَجهولَةٍ مَعرِفَةِ مَجهولٍ، فهو لا يُريدُ بهِ السُّؤالَ عَن هويَّتِهم، بَل يُريدُ تَعظيمَ شَأنِهم، والتَّنبيهَ عَلى عُلوِّ مَنزِلَتِهم، كَأَنَّهُ يَقولُ: أيُّ شَيءٍ يُداني قَدرَهُم؟! وكَيفَ يُحيطُ الوَصفُ بما أُعِدَّ لَهُم؟!.

وَهوَ الأُسلوبُ نفسُه الَّذي سَبَقَ في قَولِهِ تَعالى: ﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾، وفي قَولِهِ: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ٢٧﴾ [المدثر: 27]، ونَظائِرُ ذلكَ في التَّعبيرِ القُرآنيِّ، إذا أرادَ تَعليَةَ مَقامٍ أو تَفظيعَ واقِعٍ، فبَلاغَةُ هَذا الاستِفهامِ في أنَّهُ يُهَيِّئُ السّامِعَ لِاستِقبالِ وصفٍ عَظيمٍ، ويَصرِفُهُ عَن الغَفلَةِ إلى تَفتيشِ مَعالِمِ هذِهِ الفِئَةِ، ثُمَّ تَأتي الآياتُ بَعدَهُ تُفصِّلُ في بَيانِ نَعيمِهِم، فيُصبِحُ السِّياقُ مُتَراقِيًا مِنَ الإجمالِ إلَى التَّفصيلِ، ومِنَ التَّشويقِ إلَى التَّمتيعِ البَيانيِّ.

بلاغة مجيء ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾ خبرًا:

قَولُهُ تَعالَى: ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾ خبرٌ للمبتدأ (أصحابُ اليَمين)، والتَّقديرُ: (أصحابُ اليَمينِ شَأنُهُم وأمرُهُم أمرٌ عَجيبٌ لا يُدرَكُ)، أو: (ما أدراكَ ما هُم؟).

مكمنُ الخبرِ في غرضِ الاستفهام وفائدته

وَهَذا الأُسلوبُ في تَركيبِ الجُملَةِ، أن يُجعَلَ الاستِفهامُ التَّعجيبيُّ خَبَرًا، فيهِ تَفخيمٌ لِلمُبتَدَإِ، وإثارَةٌ لِلتَّشَوُّفِ إلى مَعرِفَةِ شَأنِهِ، وهوَ مِن بَديعِ الأُسلوبِ القُرآنيِّ، حَيثُ يوَظَّفُ الخَبَرُ في صيغَةِ ﴿مَآ﴾ المُفيدَةِ لِلتَّهويلِ، فيَصيرُ السّامِعُ في مَقامِ المُنتَظِرِ لِما سَيَأتي، والمُتَطَلِّعِ إلى تَفصيلٍ يُقارِبُ هَذا الإجمالَ.

نكتة حذف المسند إليه:

حُذِفَ المبتدأ في قَولِه تَعالَى: ﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ﴾، والتّقدير: (هُم في سِدرٍ مَخضودٍ)، ونَظائِرُ ذلكَ كَثيرَةٌ في القُرآنِ؛ كَقَولِهِ تَعالَى: ﴿فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ١٤٧﴾ [الشُّعراء: 147]، ونُكتَةُ هَذا الحَذفِ أنَّهُ يُسهِمُ في تَسريعِ وتيرَةِ الوَصفِ، ويُعَجِّلُ بالانتِقالِ إلى صورِ النَّعيمِ ومَشاهِدِ المَجدِ والرَّفاهِ، فلا تَتَعَطَّلُ الأُذُنُ بذِكرِ الضَّمائِرِ، بَل تَستَقبِلُ تَعاقُبًا

حـذفُ المبتدأ مسارعةٌ بذكر الخبر وعنايةٌ بمضمونه

بَيانيًّا رَسولُهُ الصّوَرُ والمَناظِرُ. وهَذا ما يُسَمَّى الإيجازَ بالحَذفِ، وهوَ مِن أبلَغِ أنواعِ الإيجازِ، إذ إنَّ القَرينَةَ السّابِقَةَ، وهيَ قَولُهُ تَعالَى: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾، تَجعَلُ الذِّهنَ مُستَعِدًّا لِاستِقبالِ جُملَةٍ تَبدَأُ بذِكرِ ما هُم فيهِ، فلَم يَحتَجِ المَقامُ إلى التَّصريحِ بـ(هُم).

دلالة استعمال حرف الظَّرفية:

التّعريض بسدرِ الدُّنيا

جاء استعمال حرفِ الظّرفيّة في قَولِهِ تَعالَى: ﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ﴾، دون أن يقول: (لَهُم سِدرٌ مَخضودٌ)، أو (يَأكُلونَ مِن سِدرٍ)، ولو قيل شيءٌ مثل ذلك؛ لَدَلَّ ذلِكَ عَلى مُجَرَّدِ الانتِفاعِ بهِ، أمّا قَولُهُ: ﴿فِي سِدۡرٖ﴾ فهوَ تَصويرٌ لِلحالِ والمَقامِ، أي: إنَّهُم مُقيمونَ في بيئَةٍ نَباتيَّةٍ ظَليلَةٍ، وإنَّ ذلِكَ النَّعيمَ لَيسَ مَرَّةً، ولا زَمَنًا، بَل هوَ حالٌ دائِمَةٌ وإحاطَةٌ تامَّةٌ، وفيه تعريضٌ بسدرِ الدُّنيا، الَّذي فيه الأشواك فلا يستطيع بلوغ وسطه النّاس. وفي الاستِغراقِ الَّذي تُفيدُهُ ﴿فِي﴾، ما يُشيرُ إلَى أنَّهُم مُنغَمِسونَ في الجَنَّةِ انغماسًا، لَيسَ لَهُ فيه فصلٌ بَينَ النَّعيمِ والمُنعَّمِ، فهيَ حالَةٌ يُكنُّها الظَّرفُ، ولَيسَت خارِجَةً عَنهُ.

توجيه تصدير السِّدر بالذِّكر:

تصويرِ الأنسِ البيئيِّ وتحويل المألوف إلى كمالٍ معنويٍّ

تَصديرُ وصفِ نَعيمِ أصحابِ اليَمينِ بقَولِهِ تَعالَى: ﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ﴾، يَحمِلُ تَوجيهًا بَلاغيًّا بالِغًا في تَصويرِ نَمَطٍ مِن نَعيمِ الجَنَّةِ، باستِخدامِ نَباتٍ مَألوفٍ عِندَ العَرَبِ، ذاتِ دَلالَةٍ بيئيَّةٍ وعاطِفيَّةٍ. فالسِّدرُ شَجَرٌ يُعرَفُ في البيئَةِ العَرَبيَّةِ، قَد يَكونُ خَشِنًا مُؤذيًا بشَوكِهِ، ولكِنَّهُ في الوَقتِ نَفسِهِ مُثمِرٌ وظَليلٌ، فجاءَ التَّصدير بذكرِهِ؛ ليُثيرَ في ذِهنِ السّامِعِ مَشهَدًا مَعروفًا، ولكِن في صورَةٍ مُحَوَّلَةٍ إلى الكَمالِ، فالسِّدرُ مَعروفٌ عِندَ العَرَبِ بجَمالِ ظِلِّهِ، ورِقَّةِ ورَقِهِ، وطيبِ رائِحَتِهِ، وكَرَمِ ثَمَرِهِ، فذِكرُهُ يَستَحضِرُ كُلَّ ذلِكَ بكَلِمَةٍ واحِدَةٍ، فهوَ مُفعَمٌ بالمَعاني المُتَعَدِّدَةِ في ذِهنِ السّامِعِ.

حكمةُ ذكر السِّدر وهو من أشجار البوادي:

ذكـرُ صغـيرِ الأشـيـاء وكبيرِها إحاطةٌ بجميعِ الأنـواعِ والأصناف

أوردَ الرّازيُّ سؤالًا مفاده: أيَّةُ نِعمَةٍ تَكونُ في كَونِهِم في سِدرٍ، والسِّدرُ من أشجارِ البَوادي، لا بمُرٍّ ولا بحُلوٍ ولا بطيبٍ؟ ثمَّ أجاب: بأنَّ البَليغَ يَذكُرُ طَرَفَي أمرَينِ، يَتَضَمَّنُ ذِكرُهُما الإشارةَ إلى جَميعِ ما بَينَهُما، كما يُقالُ: فُلانٌ مَلَكَ الشَّرقَ والغَربَ، ويُفهَمُ منه أنَّهُ مَلَكَهُما ومَلَكَ ما بَينَهُما، فنَقولُ: لا خَفاءَ في أن تَزيينَ المَواضِعِ الَّتي يُتَفَرَّجُ فيها بالأشجارِ، وتِلكَ الأشجارُ تارةً يُطلَبُ مِنها نَفسُ الوَرَقِ والنَّظَرُ إلَيهِ والاستِظلالُ به، وتارةً يُقصَدُ إلى ثِمارِها، وتارةً يُجمَعُ بَينَهُما، لكنَّ الأشجارَ أوراقُها على أقسامٍ كثيرةٍ، ويَجمَعُها نَوعانِ: أوراقٌ صِغارٌ، وأوراقٌ كِبارٌ، والسِّدرُ في غايةِ الصِّغَرِ، والطَّلحُ وهو شَجَرُ الموزِ في غايةِ الكِبَرِ، فقَولُهُ تَعالَى: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝٢٨ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ إشارةٌ إلى ما يَكونُ ورَقُهُ في غايةِ الصِّغَرِ من الأشجارِ، وإلى ما يَكونُ ورَقُهُ في غايةِ الكِبَرِ مِنها، فوَقَعَتِ الإشارةُ إلى الطَّرَفَينِ، جامِعَةً لِجَميعِ الأشجارِ نَظَرًا إلى أوراقِها، والوَرَقُ أحَدُ مَقاصِدِ الشَّجَرِ، فوَقَعَتِ الإشارةُ إلَيهِما جامِعَةً لِجَميعِ الأشجارِ نَظَرًا إلى ثِمارِها، وهذا جَوابٌ فائِقٌ وفَّقَنا اللّهُ تَعالَى له[1].

نكتة ذكر اسم الشَّجر ﴿سِدْرٍ﴾:

حكمةُ القرآنِ تظهر في ذكر جميعِ مناحي النّعم لا الاقتصار على بعضها

آثر النّظم الكريم ذكرَ (السِّدر)، وهوَ اسمُ الشَّجَرِ، دونَ ذكر الثَّمر وهو النَّبق، وهو المقصود بالانتفاع، إيماءٌ بَليغٌ إلَى أنَّ المُرادَ جَميعُ الشَّجَرِ بذاتِهِ، بظِلِّهِ، ورَيحِهِ، ومَنظَرِهِ، وثَمَرِهِ، ولَيسَ مُجَرَّدَ ما يُجتَنَى مِنهُ. فذكرُ الشَّجَرِ دونَ الثَّمَرِ يُفيدُ الاستِغراقَ في المَتاعِ، فالنّاعِمُ في الجَنَّةِ لا يَستَفيدُ مِنَ الثَّمَرِ وحدَهُ، بَل يَنعُمُ بالظِّلِّ، والمَنظَرِ، والرّائِحَةِ، والسُّكنَى، فذِكرُ (السِّدرِ) أشمَلُ وأوفَى.

وَكَذلِكَ، فإنَّ في تَركِ التَّصريحِ بالثَّمَرِ، والاعتِمادِ على الشَّجَرِ،

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتح الغيب: 29/ 404.

تَرقيَةً في الإدراكِ، ففي الجَنَّةِ لَيسَ الثَّمَرُ أهَمَّ ما فيها، بَل حُسنُ المَقامِ، وجَمالُ المَنظَرِ، وهُدوءُ البيئَةِ، والسِّدرُ في ذِكرِهِ تَجسيدٌ لِذلِكَ كُلِّه.

نكتة تنكير لفظ ﴿سِدْرٍ﴾:

بيان نوع السِّدر وأنَّه غير معهودٍ لدى النّاس

نُكِّر لفظ ﴿سِدْرٍ﴾ في قَولِهِ تَعالَى: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾؛ لإفادة التَّفخيم النّوعيِّ المكتسب من الصِّفة، والإشارة إلَى عَظَمَةٍ لا تُدرَكُ حُدودُها، ولا تُقاسُ بمِقدارٍ مَألوفٍ، فكَأنَّهُ يَقولُ: إنَّهُ سِدرٌ، ولَكِن لَيسَ كَسائِرِ السِّدرِ الَّذي تَعرِفونَهُ، بَل هوَ نَوعٌ آخَرُ، لا يُشبِهُهُ مَعهودٌ، ولا تُدرِكُهُ أفهامُكُم في الدُّنيا.

بلاغة وصف السِّدر بالمخضود:

تمكُّنُ أصحاب اليمين من السّدر دليلُ سهولةِ الوصول ويسر التّناول

وُصف السِّدرُ بأنّه مخضودٌ في قوله تعالى: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾، والسِّدرُ شَجَرٌ مَعروفٌ، يَكونُ بَرّيًّا في الأكثَرِ، ولَهُ شَوكٌ، وهوَ صَلبٌ وخَشِنٌ، لا يُرغَبُ فيهِ إن نُظِرَ إلَى حالِ الشَّوكِ فيهِ، ووصفه بالمخضود، أي المُزالُ شَوكُهُ؛ لاكتمالِ مَحاسِنِهِ بانتفاء ما فيهِ من أذًى. وهو مَع هَذا يُؤتي ثَمَرًا طَيِّبًا وظِلًّا وافِرًا، ولِهَذا فقَد وُصفَ بالمخضودِ، أي المُزال شَوكُهُ وبهذا تكونُ قد كَمُلت محاسِنُه بانتفاء ما فيه من أذًى[1].

نكتة عطف الطَّلح على السِّدر:

ترقّي الصّورة في مشهد الجنَّة من ظلال السِّدر إلى أفانين الطَّلح

عَطفُ الطَّلحِ على السِّدرِ دالٌّ على أنَّهُما مِن بابٍ واحِدٍ، وفي جِنسٍ مُتَّحِدٍ، وهوَ جِنسُ الشَّجَرِ المُظِلِّ الَّذي فيهِ زينَةٌ ونَفعٌ؛ ولِذلِكَ "فَقَولُهُ تَعالَى: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝٢٨ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ إشارَةٌ إلَى ما يَكونُ ورَقُهُ في غايَةِ الصِّغَرِ مِنَ الأشجارِ، وإلَى ما يَكونُ ورَقُهُ في غايَةِ الكِبَرِ مِنها، فوَقَعَتِ الإشارَةُ إلَى الطَّرَفَينِ جامِعَةً لِجَميعِ الأشجارِ نَظَرًا إلَى أوراقِها، والوَرَقُ أحَدُ مَقاصِدِ الشَّجَرِ"[2]. فكانَ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 298.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 404.

الطَّلحُ في هَذا السّياقِ تَمامًا لِصورَةِ المَشهَدِ الطَّبيعيِّ، يُضافُ إلَى السِّدرِ في دَلالَتِهِ على الغابَةِ الوارِفَةِ، والجَنَّةِ الخَضراءِ، الَّتي فيها أشجارٌ عِظامٌ مُنَسَّقَةٌ مُنضودَةٌ، تَبثُّ في النَّفسِ الطُّمَأنينَةَ والجَمالَ، وتَصنَعُ مَشهَدًا بَصَريًّا يُغَذّي الرّوحَ والقَلبَ مَعًا.

دلالة وصف الطَّلح بالمنضود:

مشهد النّعمة المنسّقة في تصوير الجنّة ترغيبٌ للنّفس الجميلةِ

إنَّ وصفَ الطَّلحِ بأنَّهُ مَنضودٌ في قَولِهِ تَعالَى: ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾، يَحمِلُ في طَيّاتِهِ دَلالَةً بَلاغيَّةً وتَصويريَّةً عَظيمَةً، تُفيدُ أنَّ نِعمَةَ الجَنَّةِ لَيسَت في ذاتِها فقَط، ولَكِن في هَيئَتِها وكَيفيَّةِ تَقديمِها. والمنضود هو الورق أو الثَّمر، والظّاهر أنَّ المراد الورق؛ لأنَّ شجر الموز من أوله إلى أعلاه يكون ورقًا بعد ورق، وقيل: المنضود المُثمر[1]. فقَدِ اختيرَ ﴿مَّنضُودٍ﴾ – وهوَ اسمُ مَفعولٍ – ليَدُلَّ على أنَّ ثِمارَ هَذا الطَّلحِ قَد نُظِّمَت ورُتِّبَت ورُصِّفَت بَعضُها فوقَ بَعضٍ، بصورَةٍ مُبهِرَةٍ في النَّظَرِ، سَهلَةٍ في القَطفِ، مُمتِعَةٍ في المَنظَرِ. فـ "المنضود الَّذي نُضِدَ بالحَمْلِ من أسفله إلى أعلاه فليست له ساق بارزة"[2]. "فإن قيل: إذا كان الطَّلح شجرًا فهو لا يكون منضودًا وإنَّما يكون له ثمر منضود، فكيف وصف به الطَّلح؟ نقول: هو من باب حسن الوجه وصف بسبب اتِّصاف ما يتَّصل به"[3]. يُقالُ: زَيْدٌ حَسَنُ الوَجْهِ، وقَدْ يُتْرَكُ الوَجْهُ ويُقالُ: زَيْدٌ حَسَنٌ والمُرادُ حَسَنُ الوَجْهِ.

فَهوَ طَلحٌ لَيسَ عَفويَّ النَّموِّ كَما يوجَدُ في الطَّبيعَةِ الدُّنيَويَّةِ، بَل هوَ طَلحٌ مُعَدٌّ ومُهَيَّأٌ ومُرَتَّبٌ لِغايَةٍ، لا تجري عليه سُنَنُ الدُّنيا، وفي تَصريفٍ يَدُلُّ على أنَّ المُنعِمَ تَعالَى تَوَلَّى تَجهيزَ نَعيمِ أصحابِ اليَمينِ بألطَفِ صوَرِ الإكرامِ والتَّقديرِ.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 405.
(2) النّسفيّ، تفسير النّسفيّ: 4/ 170.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 405.

دلالة التَّعبير بصيغة ﴿مَّنضُودٍ﴾:

بلاغة النَّضد في وصف الطَّلح نعيمٌ مرتَّبٌ على عين الكرامة والتَّدبير

صيغَةُ ﴿مَّنضُودٍ﴾، وهيَ اسمُ مَفعولٍ، تُفيدُ أنَّ النَّضدَ - وهوَ التَّرتيبُ والتَّرصيفُ - لَم يَحدُث بطَريقٍ عَفويٍّ، بَل هوَ تَصَرُّفٌ قَصديٌّ، وفِعلٌ مَحسوبٌ، جاءَ لِخِدمَةِ المُنعَم عَلَيهِ. فالثِّمارُ مَصفوفَةٌ بَعضُها فوقَ بَعضٍ، كَأنَّها مَوضوعَةٌ بأيدٍ تَقصِدُ الإكرامَ والإتقانَ، لا كَما تَتَساقَطُ الثِّمارُ في الدُّنيا بغَيرِ نِظامٍ. وفي هَذا تَلميحٌ بَيانيٌّ إلَى أنَّ نَعيمَ الجَنَّةِ لا يَأتي عَفوًا، ولا يَظهَرُ في صورَةٍ مُبتَذَلَةٍ، بَل هوَ نِظامٌ جَميلٌ، وتَرتيبٌ مَقصودٌ، يَعكِسُ عِنايَةَ المُنعِمِ ﷻ بعِبادِهِ.

توجيه اختصاص السِّدر بوصف مخضود والطَّلح بوصف منضود:

بلاغة التَّناسب بين وصف السِّدر والطَّلح نزعُ الأذى وتكميلُ البهاء

خصَّ النَّظم الكريم في قوله تعالى: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝٢٨ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ السِّدرَ والطَّلح بالذِّكر، فالسِّدرُ - وهوَ شَجَرُ النَّبقِ - مِمّا اشتُهِرَ في البيئَةِ العَرَبيَّةِ بكَثرَةِ شَوكِهِ، ومَعَ كَونِهِ ذا ثَمَرٍ طَيِّبٍ، فإنَّ الأذَى فيهِ بارِزٌ، لِذلِكَ كانَتِ النِّعمَةُ المَذكورَةُ فيهِ في الجَنَّةِ أنَّ شَوكَهُ قَد خُضِدَ، أي قُطِعَ وأُزيلَ، فصارَ سِدرًا مَخضودًا، في مَنظَرِهِ جَمالٌ، وفي مَلمَسِهِ أمانٌ، وفي ثَمَرِهِ نَفعٌ بلا أذًى، فكانَتِ العِنايَةُ هُنا بإزالَةِ المَكروهِ.

أمّا الطَّلحُ - وهوَ شَجَرٌ عَظيمٌ مِن ذَواتِ الظِّلِّ - فلَيسَ فيهِ ما يُستَكرَهُ، ولَكِن كانَتِ المِنَّةُ فيهِ في جِهَةِ التَّكميلِ والتَّجميلِ، فجاءَ وصفُهُ بـ ﴿مَّنضُودٍ﴾؛ ليُفيدَ أنَّ ثِمارَهُ قَد رُتِّبَت في حُسنِ مَنظَرٍ، ويُسرِ مَنالٍ، وجَمالِ تَنسيقٍ، فكانَتِ المِنَّةُ هُنا في إضافَةِ البَهاءِ إلَى المَوجودِ.

وعَلى ذلِكَ، كانَ الوَصفانِ كُلٌّ في مَوضِعِهِ الأولَى: فـ ﴿مَّخْضُودٍ﴾ في حَقِّ السِّدرِ نَفيٌ لِما يُؤذي، و﴿مَّنضُودٍ﴾ في حَقِّ الطَّلحِ إثباتٌ لِما يُبهِجُ ويُزَيِّنُ، وفي كِلَيهِما تَجَلٍّ؛ لِتَنَوُّعِ أوجُهِ النَّعيمِ: نَعيمٌ برَفعِ الضَّرَرِ، ونَعيمٌ بإضافَةِ الزِّينَةِ.

نكتة عطف الظِّلِّ على السّابق:

بلاغة التّكميل والتّتميم بذكر الظِّلِّ بعد ما ذكر ما يحوي الظِّلّ

عَطفُ الظِّلِّ على السِّدرِ والطَّلحِ في قَولِهِ تَعالَى: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ لَيسَ عَطفًا على جِنسٍ واحِدٍ، بَل هوَ مِن بابِ تَنَوُّعِ أنواعِ النَّعيمِ واتِّساعِ المِنَّةِ، فالسِّدرُ والطَّلحُ مِمّا يُقتَنَى ثَمَرُهُ، ويُبتَغَى نَفعُهُ بالتَّغَذّي والتَّلَذُّذِ، والظِّلُّ مِمّا يُطلَبُ لِلرّاحَةِ والسُّكونِ والأُنسِ، فجاءَ ذِكرُهُ مَعطوفًا على ما قَبلَهُ لِيُكمِلَ بنيَةَ النَّعيمِ المُتَفاوِتِ المُتَعَدِّدِ الأغراضِ، فالقُرآنُ يُصَوِّرُ أصحابَ اليَمينِ يَتَقَلَّبونَ بَينَ ظِلالٍ وثِمارٍ، وراحَةٍ وتَنَعُّمٍ، فلا حَرَّ يُؤذيهِم، ولا نَصَبَ يُعَنّيهِم.

نكتة إفراد لفظ (ظلّ) وتنكيره:

الظِّلُّ عظيمٌ بصفاته وامتداده وأثره النّافع

إفرادُ لفظ (ظلّ) وتنكيره لَيسَ على وجهِ القِلَّةِ، بَل على سَبيلِ التَّنزيلِ لِلنَّوعِ الكامِلِ، والإشارَةِ إلَى أنَّ الظِّلَّ المَذكورَ لا يَستَقي قيمَتَهُ مِن كَثرَتِهِ وتَعَدُّدِ مَواقِعِهِ، بَل مِن نَوعِهِ وصِفَتِهِ وحالِهِ. وأمّا التَّنكيرُ فهوَ لِلتَّعظيمِ، يوحي بأنَّهُ ظِلٌّ لا يُشبِهُ أظِلَّةَ الدُّنيا، لا تَتَقَلَّبُ فيهِ الشَّمسُ والغُيومُ، ولا يَزولُ عَن أهلِهِ، ولا يُنغِّصُهُ ارتِفاعُ نَهارٍ ولا غُروبُ شَمسٍ؛ فاجتمع الإفراد والتّنكير في تعظيم شأنِه وتفخيم حاله، وهو ما يُرشحه الوصفُ بالممدود.

فائدة وصف الظِّلِّ بالممدود:

دلالة (ممدود) في تصوير الظِّلِّ في الجَنَّة

في قَولِهِ تَعالَى: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾، جاءَ وصفُ الظِّلِّ بِصِفَةٍ مُفرَدَةٍ، دونَ أن يُقرَنَ بِرَديفٍ لَهُ كَطَويلٍ أو وارِفٍ أو دائِمٍ، مَعَ أنَّ كُلَّ هذِهِ الأوصافِ قَد تُراعي مَعانيَ قَريبَةً، لكِنَّ الوصفَ بممدود أدَقُّ في الدّلالَةِ وأعمَقُ في الإيحاءِ، ومِمّا يُبيِّن عظمة هذا الظِّلِّ، ما جاء عن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ في الجَنَّةِ لَشَجَرَةً

يَسيرُ الرّاكِبُ في ظِلِّها مِئَةَ سَنَةٍ»[1]، وزاد في مسند البزّار: «اقرَؤوا إن شِئتُم ﴿وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ﴾»[2].

غرض التَّعبير بصيغة المفعول ﴿مَّمۡدُودٖ﴾:

تصوير الظِّلّ في الجَنَّة بوصفه أثرًا مقصودًا لا طبيعةً تلقائيَّة

غرض التَّعبير بصيغةِ المفعولِ في قولِه تعالى: ﴿وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ﴾، بدلًا منَ أن يُقالَ مثلًا: (ظلٌّ مادٌّ)، هو إفادةُ معنى الامتدادِ المحدثِ بالفعلِ لا الذّاتِ، أي إنَّ ذلكَ الظِّلَّ ليسَ موجودًا على هيئةٍ طبيعيةٍ أو تلقائيَّةٍ كما نألفُ الظِّلالَ في الدُّنيا، بل هو ظلٌّ قد مُدَّ مدًّا، وصُنِعَ صنعةَ الإكرامِ والنَّعيمِ؛ فالفعلُ مستبطنٌ في صيغةِ المفعولِ، وهو يشيرُ إلى أنّ هذا الظِّلَّ قد جُعلَ على هذا النَّحوِ بطريقِ التَّقديرِ الرَّبانيِّ، والقدرةِ الحكيمةِ.

ولذلكَ لم يوصَف بـ(الدّائم) الَّذي قد يُتوهّمُ منهُ الثَّباتُ الطَّبيعيُّ، بل بـ(الممدودِ)؛ ليشيرَ إلى الاستمرارِ المقرونِ بالعنايةِ والتَّقديرِ، وهو ما يُترجم دقّة الاستعمال القرآنيِّ، وتفسيره بالدّائم تقريبٌ للمعنى[3].

نكتة عطف الماء على السّابق:

تتميمُ صورةِ النَّعيم وتنوّعه في مقام أصحاب اليمين

بعد ذكرِ السِّدرِ المَخضودِ والطَّلحِ المَنضودِ والظِّلِّ المَمدودِ، جاءَ عَطفُ الماءِ المَسكوبِ عَلَيها تَتميمًا لِلصّورَةِ البَهيَّةِ لِمَقامِ أصحابِ اليَمينِ، فلا يَستَتِمُّ النَّعيمُ بالظِّلِّ والأشجارِ إلّا بالماءِ الَّذي تَجري بِهِ الحَياةُ وتَستَريحُ برِقَّتِهِ الأنفُسُ.

وَعَطفُ الماءِ على الظِّلِّ على التَّرتيبِ يَستَدعي في الذِّهنِ صورَةَ مَجرَى الماءِ تَحتَ الظِّلالِ، وجَرَيانَهُ على البِساطِ الخَضِرِ، وهوَ تَرتيبٌ يُناسِبُ حالَ المُتَمَتِّعِ الَّذي يَنتَقِلُ مِنَ الظِّلِّ الوارِفِ إلَى الرَّشفِ

(1) مسلم، صحيح مسلم، باب إنّ في الجنّة شجرة، رقم الحديث: 7238: 8/ 144.
(2) البزّار، مسند البزّار، باب مسند أبي هريرة ﷺ، رقم الحديث: 8107: 2/ 410، وابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 115.
(3) الواحديّ، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 1/ 1060.

العَذبِ، ثُمَّ إلَى الأُكلِ الكَريمِ، وفي العَطفِ إشعارٌ بأنَّ هَذا نَعيمٌ مُتَنَوِّعٌ، لا تَكرار فيه ولا رُكود، بَل تَصويرٌ لِجَنَّةٍ تَتَعاقَبُ فيها المُتَعُ كَما تَتَعاقَبُ الألوانُ في زُهورِ الرَّبيعِ.

بلاغةُ وصف الماء بالمسكوب:

صورة الانسياب الرَّقيق والتَّدبير الإلهيّ المقصود

آثر النّظم الكريم وصفَ الماءِ بأنّه مسكوبٌ في قَولِهِ سُبحانَهُ: ﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾، دونَ أن يُقالَ: (جارٍ) أو (مَصبوبٍ)، فالماءُ الجاري يُشعِرُ بتَحَرُّكٍ طَبيعيٍّ يَسيلُ في الأوديَةِ والجَداوِلِ، والماء المَصبوبُ يُلائِمُ الكَثافَةَ والكَمالَ في النُّزول، وقَد يُستَخدَمُ في المُعالَجاتِ والخُشونَةِ، أمّا الماء المَسكوبُ فهوَ الماءُ الَّذي يُسكَبُ سَكبًا مُتَواصِلًا رَقيقًا لَيِّنًا، يَسيلُ بلا عَنَتٍ، ولا صَوتٍ، ولا جَمعِ جُهدٍ، ويُشعِرُ بالسَّلاسَةِ والدَّوامِ والهُدوءِ، وذلِكَ أنسَبُ بمَقامِ النَّعيمِ في الجَنَّةِ. وسَكب الماء: صبّه، وأطلق هنا على جريه بقوَّة يشبه السَّكب وهو ماء أنهار الجَنَّةِ[1].

غرض التَّعبير بصيغة المفعول ﴿مَّسْكُوبٍ﴾:

تصويرُ النَّعيم المـمـنـوح لا النّابع، والرّاحة المـقـصـودة لا العفويَّة الجارية

في قَولِهِ تَعالَى: ﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾، جاءَ الوَصفُ بصيغَةِ اسم المَفعولِ، لِلدّلالَةِ على أنَّ هَذا الماءَ لَيسَ جاريًا جَريًا عَفويًّا، ولا نابِعًا بطَبيعَتِهِ، بَل هوَ مِمّا سُكِبَ سكْبًا، أي جَرَى بفِعلِ فاعِلٍ وبقَصدٍ وإرادَةٍ، وذلِكَ أبلَغُ في دلالَةِ التَّنعيمِ والإكرامِ. ومعنى ﴿مَّسْكُوبٍ﴾ أي: "يسكب لهم أين شاءوا وكيف شاءوا لا يتعنَّون فيه. وقيل: دائم الجرية لا ينقطع. وقيل: مصبوب يجرى على الأرض في غير أخدود"[2]. فالتَّعبيرُ عَنهُ بـ ﴿مَّسْكُوبٍ﴾ يُشعِرُ بأنَّ ذلِكَ الماءَ يُسكَبُ على أهلِ الجَنَّةِ سَكبًا، أي يُفيضُ عَلَيهِم فوقَ ما يَطلُبونَ، ويَتَجَدَّدُ انسيابُهُ وتَجديدُهُ كُلَّما احتاجوا إلَيهِ، فلا هوَ بماءٍ راكِدٍ،

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 300.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 461.

ولا هوَ بماءٍ مَحبوسٍ، ولَكِنَّهُ ماءٌ مُتَجَدِّدٌ، سائِلٌ، مُنصَبٌّ بالطِّيبَةِ والطَّهارَةِ والِارتياحِ.

نكتة تنكير لفظ (فاكهة):

تنـوّع الفاكهة وكـثرتـهـا غير معـهـود ولا في العقول معلوم

نُكِّرَ لفظُ (فاكِهَة) في قولِه تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾، تنكيرَ تعظيمٍ وتفخيمٍ، لا تنكيرَ تقليلٍ أو تنكيرَ شيوعٍ، وذلك لما يُفيدهُ التَّنكيرُ في مقامِ الامتنانِ من إشعارٍ بعِظَمِ الموهوبِ وسَعةِ مقدارِه، فكأنّ الآيةَ تقولُ: وفاكهةٍ لا تُحدُّ أنواعُها، ولا تُحصى أصنافُها، بل هي فاكهةٌ كثيرةٌ من كلِّ ما تشتهيهِ الأنفُس وتلذُّ بهِ العينُ ويَطيبُ بهِ الطّعمُ.

وإنّما عُدِلَ عن تعريفِها بـ(أل) إلى التَّنكيرِ، إيذانًا بأنّها فاكهةٌ غيرُ معروفةٍ في جنسِها الدُّنيويِّ، فهي أجناسٌ وألوانٌ ممّا لم تبلُغهُ الأبصارُ، ولا تدركهُ الأوهامُ، كما قالَ تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السّجدة: 17]، فتقديمُها مُنكَّرةً أبلغُ في إثارةِ التَّشوُّفِ إليها، والتَّنبيهِ إلى عظمتِها.

كما أنّ في التَّنكيرِ مُناسَبَةً مع قولِه بعدها: ﴿كَثِيرَةٍ﴾، فدلّ على كثرة عددها[1]؛ وليس ذلك فحسب؛ بل كثرةٌ في الأنواعِ والتَّنوُّعِ والمذاقِ، وهذا أبلغُ في النَّعيمِ وأجلبُ للسُّرورِ، من أن يُقالَ: (والفاكهةُ الكثيرةُ)، فإنّ المعرفةَ تُشعرُ بالتَّحديدِ، بخلافِ التَّنكيرِ فإنَّهُ أدعى للانطلاقِ والتَّخييلِ الواسعِ.

دلالة وصف الفاكهة بالكثرة:

كثرةُ فاكهةِ أهلِ الجنّة كثرةُ تنوُّعٍ وتـلـذُّذٍ لا كـثرةُ إشبـاعٍ وتلبية حاجة

وُصفت الفاكهة بالكثرة في قَولِهِ تَعالَى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾؛ ليتناسب مع غرض التّنكير، وتَصديرًا لِمَعنًى فائِضٍ بالمُتعَةِ والتَّنويعِ، وفَسحًا لِلتَّخييلِ في ما يَشتَهيهِ المُتَلَذِّذُ. فلَم تَقتَصِرِ الآيَةُ على ذِكرِ الفاكِهَةِ، بَل وصَفَتها بالكَثرَةِ، إشارَةً إلَى سَعَةِ أنواعِها، وتَعَدُّدِ أصنافِها، ووُفورِ مَوارِدِها، ودَوامِ حُضورِها.

(1) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 1/ 37.

وفي الوصف تَنبيهٌ إلَى أنَّ الكَثرَةَ هُنا لَيسَت مَجَرَّدَ عَدَدٍ، بَل هيَ مَعنًى يُلامِسُ التَّنَوُّعَ والإباحَةَ وسُرعَةَ التَّناوُلِ، فإنَّ فواكِهَ الجَنَّةِ لا يَنقَطِعُ مَدَدُها، ولا يَحولُ دونَها مانِعٌ. واللّه تَعالَى حَيثُ ذَكَرَ الفاكِهَةَ ذَكَرَ ما يَدُلُّ على الكَثرَةِ؛ لأنَّها لَيسَت لِدَفعِ الحاجَةِ حَتَّى تَكونَ بقَدرِ الحاجَةِ، بَل هيَ لِلتَّنَعُّمِ، فوَصَفَها بالكَثرَةِ والتَّنَوُّعِ[1].

توجيه الفرق بين فاكهة السّابقين وفاكهة أصحاب اليمين:

التّعبير القرآنيّ يراعي مقامات أهل الجنّة ويعتني بأحوالهم

الفرقُ بينَ فاكهةِ السّابِقينَ وفاكهةِ أصحابِ اليمينِ في سياقِ سورةِ الواقِعَة دقيقٌ من حيثُ التّعبيرُ القرآنيُّ ومرتبطٌ بمقامِ التّفصيلِ والامتنانِ، ففي شأنِ السّابِقينَ قالَ تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾، أمّا في وصفِ نعيمِ أصحابِ اليمينِ فقالَ: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝٣٢ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾.

والتّعبيرُ في الآيةِ الأولى يدلُّ على اختصاصٍ واصطفاءٍ، إذ أُضيفَتِ الفاكهةُ إلى ما يتخيّرونه بأنفسهم، فمقامُهم مقامُ سيادةٍ وتخيُّرٍ، لا يُقدّمُ لهم إلّا ما تطلبهُ نفوسُهم وتُشيرُ إليهِ رغباتُهم، فكان في هذا التَّعبيرِ تشريفٌ لهم وتفخيمٌ لمنزلتهم، يُناسبُ علوّ مقامِهم في السّبقِ إلى الطّاعةِ ورفعةِ درجتِهم عند اللّهِ.

أمّا في الآيةِ الثّانية، فجاءَ التّعبيرُ بـ: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝٣٢ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾، وهو وصفٌ يُفيدُ الكثرةَ والوفرةَ والتّيسيرَ، دون أن يُنسبَ الأمرُ لاختيارِهم كما في حالِ السّابِقينَ، ففيه ما يدلُّ على النّعيمِ المُهيَّأِ لهم تهيئةَ كرمٍ وإكرامٍ، لكن ليس في مقامِ التَّخيُّرِ التّامِّ والاصطفاءِ الشّخصيِّ، وإنّما هو فضلٌ ونعيمٌ دائمٌ متاحٌ بلا انقطاعٍ ولا حظرٍ، يُناسبُ مقامَهم في الجنّة، وهو دونَ مقامِ السّابِقينَ.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 144.

فالتّعبيرُ بقوله تعالى: ﴿مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ يدلُّ على حريّةِ الإرادةِ واستجابةِ النّعيم لأدقّ رغباتِ المتنعّمين، وهو أرفعُ مقامًا من الكثرةِ والدَّوام فحسب، كما في قوله: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝٣٢ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾.

وهكذا، ناسبَ التَّعبيرُ في كلّ موضعٍ مقامَ المُخاطَبينَ ومرتبتَهم في الجنّة، فكانَ التّفاوتُ في وصفِ الفاكهةِ مُراعيًا لمقاماتِ القوم لا لمجرّد التَّنوّعِ البلاغيِّ، وذلك من دقائقِ التَّعبير القرآنيّ الموصل إلى المعنى المقصود.

بلاغة استعمال النَّفي:

نـفـيُ الـنَّـقـص تمهيدٌ لتصويرِ الكمال

اختيرَ النَّفيُ عِوَضًا عَنِ الإثباتِ في قوله تعالى: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾، فلَم يَقُل: (فاكِهَةٌ دائِمَةٌ ومُتاحَةٌ)؛ ليُفيدَ التَّنزيهَ عَن نَقيضِ الكَمالِ، والتَّخليَةَ قَبلَ التَّحليَةِ، فالآيَةُ تُقَدِّمُ نَفيَ النَّقصِ كَأوَّلِ بشارَةٍ لِلنَّفسِ البَشَريَّةِ، ثُمَّ تُرَسِّخُ الكَمالَ بَعدَ ذلِكَ في أعماقِ الوَعي.

والوصف بـ ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ وصفٌ بانتفاء ضدِّ المطلوب، إذ المطلوب أنَّها دائمة مبذولة لهم. والنَّفي هنا أوقع من الإثبات؛ لأنَّه بمنزلة وصفٍ وتوكيده، وهم لا يصفون بالنَّفي إلّا مع التَّكرير بالعطف كقوله تعالى: ﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ [النّور: 35][1]. فاستعمالُ النَّفي هُنا، في تركيب (﴿لَّا﴾...﴿وَلَا﴾)، يُفيدُ عُمومَ الزَّمانِ والحالِ، كَأنَّ الفاكِهَةَ لا تَمُرُّ بحالٍ تَنقَطِعُ فيهِ، ولا تواجِهُ وقتًا تُمنَعُ فيهِ، فهيَ في تَصَرُّفِهِم دَومًا بلا حِجابٍ، ولا سوقٍ، ولا مُقايَضَةٍ، بَل هيَ تَتَدَفَّقُ وفقَ ما يَشتَهونَ ويَتَخَيَّرونَ[2].

بلاغة تخصيص القطع والمنع بالذِّكر:

التَّخلية قبل التَّحلية ودفع النَّقص توطئة لإثبات الكمال

قوله: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ﴾ هي دائمة لا تنقطع في بعض الأوقات كفواكه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 300.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 144.

الدُّنيا ﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ لا تمنع عن متناولها بوجه، ولا يحظر عليها كما يحظر على بساتين الدُّنيا[1]. فهَذانِ الوَصفانِ - القَطعُ والمَنعُ - هُما أبرَزُ ما يُنَغِّصُ نَعيمَ الفَواكِه في الدُّنيا، فكَثيرًا ما تَفتَقِرُ الأنفُسُ إلَى الفاكِهَةِ فلا تَجِدُها؛ لأنَّها قَد قُطِعَت بانقِضاءِ زَمانِها، أو مُنِعَت بسَبَبٍ ما، مِن فقرٍ أو تَحَكُّمٍ أو قِلَّةِ سَبَبٍ. فجاءَ التَّعبيرُ القُرآنيُّ بنَفيِ هذَينِ الوَصفَينِ، ليَدُلَّ على كَمالِ التَّمَتُّعِ واستمرارِ المُتعَةِ، وبِلا حاجِزٍ زَمَنيٍّ أو قَهريٍّ.

فَجاءَ النَّفيُ عَنِ الوَصفَينِ المُجتَمِعَينِ في نُفوسِ أهلِ الدُّنيا كَأشَدِّ ما يُنَغِّصُ نَعيمَها، وبِذلِكَ تَتَجَلَّى نِعمَةُ الجَنَّةِ في أسمَى صوَرِها، فهيَ فاكِهَةٌ كَثيرَةٌ، مُتاحَةٌ، دائِمَةٌ، مُباحَةٌ، توافِقُ فِطرَةَ الشَّهوَةِ ولا تُنَغِّصُها.

نكتة جمع الفرش:

رفعةُ النَّعيم وسموُّ المقام في تصوير الجنّة

قَولُهُ: ﴿وَفُرُشٍ﴾ جَمعُ فِراشٍ. وفي جَمعِها دلالَة بَليغَة على كَثرَةِ الفُرُشِ، وتَنَوُّعِها، واتِّساعِ نِصابِ التَّمَتُّعِ بها، ممّا يَفوقُ خَيالَ أهلِ الدُّنيا. فنَعيمُ الجَنَّةِ لا يُبنَى على قَدرِ الاكتِفاءِ، بَل على فُضولِ اللَّذَّةِ، وفيضِ السَّعَةِ. فلَو قيلَ: (فِراشٌ مَرفوعٌ)، لَدَلَّ على واحِدٍ مَعروفٍ، مَحدودِ الصِّفَةِ، وهوَ ما تَستَوجِبُهُ حاجَةُ المَكانِ. أمّا الجَمعُ فهوَ أجدَرُ بالدّلالَةِ على كَمالِ التَّنعيمِ، وتَعَدُّدِ مَواضِعِ الرّاحَةِ، وتَفاوُتِ أنواعِها ومَناظِرِها.

بلاغة استعمال لفظ الفرش بين الحقيقةِ والمجاز:

الفُرُش هي ما يُجعل تحت المتّكئين ويحتمل على المجاز النّساء

تتجلّى بَلاغَةُ استِعمالِ لَفظِ الفُرُشِ في انسِجامِها التّامِّ مَعَ سياقِ الامتِنانِ بنَعيمِ أصحابِ اليَمينِ، وفي دِقَّةِ التَّعبيرِ الَّذي يوافِقُ طَبيعَةَ المَقامِ، فقَد جاءَ ذِكرُ الفُرُشِ بَعدَ تَعدادِ نِعَمٍ مُتَّصِلَةٍ بالطَّعامِ والشَّرابِ والظِّلالِ، فكانَ لِلَفظِ (الفُرُشِ) مَكانَةٌ في تَصويرِ الرّاحَةِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 461.

والسُّكونِ النَّفسيِّ الَّذي يُلازِمُ المُتَنَعِّمَ بَعدَ الشِّبَعِ والرِّيِّ، وهوَ مِن دَقائِقِ التَّناسُبِ بَينَ الألفاظِ والمَعاني. واختيارُ لَفظِ فُرُشٍ دونَ أن يُقالَ: (أسِرَّةٍ) أو (مَرافِقَ) يَحمِلُ نُكتَةً بَلاغيَّةً، إذ إنَّ الفُرُشَ تُفيدُ مَعنَى التَّمَدُّدِ والرّاحَةِ والاستِقرارِ، وهوَ أوفَقُ في المَقامِ الَّذي يُقصَدُ بِهِ تَصويرُ النَّعيمِ المُقيمِ، وتَفاوُتُ دَرَجاتِ الرّاحَةِ الَّتي يُهَيَّأُ فيها المَقامُ لِلمُخاطَبينَ مِن أصحابِ اليَمينِ.

وَقالَ أبو عُبَيدَةَ: "المُرادُ بالفُرُشِ النِّساءُ؛ لِأنَّ المَرأةَ يُكنَى عَنها بالفِراشِ، ورَفعُهُنَّ في الأقدارِ والمَنازِلِ. والضَّميرُ في ﴿أَنشَأْنَـٰهُنَّ﴾ عائِدٌ على (الفُرُشِ) في قَولِ أبي عُبَيدَةَ، إذ هُنَّ النِّساءُ عِندَهُ"[1]. "والعرب تسمّي المرأة: فِراشًا وإزارًا ولباسًا، وفي معنى رفعهنَّ ثلاثة أقوال: أحدها: أنَّهنَّ رُفِعن بالجمال على نساء أهل الدُّنيا، والثّاني: رُفِعن عن الأدناس، والثّالث: رُفِعن في القلوب لشِدَّة الميل إليهنَّ"[2].

والأوْلَى حمل اللَّفظِ على حقيقتِه لا مجازِه، وإن كان المجازُ حاضرًا بحسب السّياق.

نكتة ذكر السُّرر في نعيم السّابقين والفرش في نعيم أصحاب اليمين:

بلاغة المفارقة بين السُّرُر والفُرُش ترجع للفروق بين مقامي أهل الجنّة

فرَّق النَّظم الكريم بين ذكرِ سُرُر السّابقين المقرّبين، وبين فرش أصحاب اليمين، فالسُّرُرُ في مَقامِ السّابِقينَ، هيَ مَواضِعُ المُلكِ، ومَعالِمُ التَّمكينِ، وهيَ مَقاعِدُ السّادَةِ، ومَناصِبُ الأشرافِ، وفي ذَلِكَ دَلالَةٌ على رِفعَةِ المَقامِ، وتَشريفِ المَكانِ، وأمّا الفُرُشُ، فهيَ لِلدَّعَةِ، والرّاحَةِ، واللَّذَّةِ، في مَقامٍ أدنَى مِن مَقامِ السُّرُرِ، لا في نَفسِهِ، ولَكِن في إشارَتِهِ الرَّمزيَّةِ إلَى مَراتِبِ أهلِ النَّعيمِ.

وَإذا كانَت السُّرُرُ تُفرَشُ، والفُرُشُ تُرفَعُ، فالقُرآنُ لَم يُذكِرِ يَذكُرِ الكُلَّ، بَل ذَكَرَ ما هوَ أبلَغُ في الدَّلالَةِ على رُتبَةِ أصحابِ كُلِّ مَقامٍ:

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 82.
(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/ 223.

فرَفعُ الفُرُشِ يُشيرُ إلَى أنَّها في مَقامٍ عَليٍّ ورَفيعٍ، ولَكِنَّهُ لا يَبلُغُ رفعَةَ السُّرُرِ الَّتي هيَ لِأهلِ السَّبقِ في الإيمانِ. فالآيَة تَرسُمُ فوارِقَ مَرموقَةً، في نَعيمٍ يَجمَعُهُ الإكرامُ، ويُفَرِّقُهُ الإجلالُ.

فائدة وصف الفرش بـ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾:

رفـــعُ الـفـرش ارتقاءٌ في الوصف والمقام وعلوٌّ في القدر والمنزلة

وُصِفت الفرش في قَولِهِ تَعالَى: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾، بأنّها مرفوعة، دون (مَمدودَةٍ) الَّذي هوَ أكثَرُ ما يوصَفُ بهِ الفُرُشُ في الدُّنيا، إلَى وصفٍ أبهَى وأرفَعَ، وهوَ: ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾، فـ(المَدُّ) يُشيرُ إلَى السَّعَةِ والانبِساطِ، وذَلِكَ نَعيمٌ، ولَكِنَّ الرَّفعَ يُفيدُ التَّكريمَ، والرِّفعَةَ في المَقامِ، والسُّموَّ في المَنزِلَةِ، وفيهِ دلالَةٌ على أنَّ الفُرُشَ لَيسَت مِمّا يُفرَشُ على الأرضِ كَما هوَ شَأنُها في الدُّنيا، بَل هيَ في أعالي المَجلِسِ، وعلى مَراتِبِ التَّشريفِ.

وَفي قَولِهِ: ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾، إشارَةٌ إلَى أنَّ صاحِبَها مَرفوعُ القَدرِ، مَرفوعُ المَنزِلَةِ، وأنَّ ما حَولَهُ قَد تَهَيَّأ لِخِدمَتِهِ وراحَتِهِ، ولَو قيلَ: (مَمدودَةٍ)، لَكانَتِ الصّورَةُ تَقتَصِرُ على وساعَةِ الفُرُشِ، وما أكثَرَ الفُرُشَ المَمدودَةَ في الدُّنيا، ولَكِنَّ الرَّفعَ لا يَكونُ إلّا لِما هوَ عالٍ في المَقامِ والمَرتَبَةِ، فكانَ التَّعبيرُ بهِ أبلَغَ في تَصويرِ نَعيمِ أصحابِ اليَمينِ.

براعة ترتيب ذكر النِّعم السّدر فالطّلح فالظّلّ فالماء فالفاكهة فالفُرُش:

تناسـق النِّـعـم وتـدرّج اللّـذائذ بـلاغـة التَّرتيب في مشاهد نعيم أصحاب اليمين

جاء تَرتيبُ النِّعَمِ المَذكورَةِ في قَولِهِ تَعالَى: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝٢٨ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ۝٢٩ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ۝٣١ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝٣٢ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ۝٣٣ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ على نَسَقِ احتياجِ الإنسانِ، وعلى مَراتِبِ التَّلَذُّذِ والاستِمتاعِ، مِن الطَّبيعيِّ الحَسّيِّ إلَى الرّاحَةِ البَدَنيَّةِ والنَّفسيَّةِ.

فَذَكَرَ السِّدرَ والطَّلحَ: وهُما مِمّا يُعطي جَمالَ المَنظَرِ وبَهجَةَ المَكانِ، ويُؤنِسُ النَّفسَ بالخُضرَةِ والثَّمَرِ. ثُمَّ الظِّلَّ المَمدودَ: وهوَ مِمّا يَكفُلُ الرّاحَةَ والدِّفءَ والطُّمَأنينَةَ، ويُقَدِّمُ المَكانَ على غَيرِهِ في

السُّكنَى والاستقرارِ. ثُمَّ الماءَ المَسكوبَ: وهوَ مِمّا تَقومُ عَلَيهِ الحَياةُ، وتَكمُلُ بِهِ النَّشوَةُ والرَّواحُ، ويَحسُنُ بِهِ المَنظَرُ ويُروَى بِهِ الجَوفُ. ثُمَّ ذَكَرَ الفَواكِهَ: فهيَ زينَةُ المَطاعِمِ، ومَظاهِرُ النَّعيمِ الفاخِرِ، تَأتي بَعدَ الرّيِّ والظِّلِّ والخُضرَةِ.

ثُمَّ خَتَمَ ذَلِكَ بِذِكرِ الفُرُشِ المَرفوعَةِ: وهيَ مَجلِسُ الرّاحَةِ ومَقامُ الهَناءِ، ومَحَلُّ الأُنسِ والسُّرورِ، فكَأنَّ النِّعَمَ تَترَتَّبُ مِن جَمالِ المَنظَرِ إلَى راحَةِ البَدَنِ، ومِن إرواءِ الجَوانِحِ إلَى تَهيئَةِ المَقامِ الكَريمِ.

بلاغة النَّظم في التَّعبير باسم المفعول في أوصاف المذكورات:

تناسق أسماء المفعول في وصف نعيم أصحاب اليمين بلاغة الإعداد الإلهيّ المقصود

إنَّ النّاظِرَ في تَرتيبِ الأوصافِ الَّتي ذُكِرَت في نَعيمِ أصحابِ اليَمينِ، يَلفِتُهُ تَواتُرُ صيغَةِ اسمِ المَفعولِ في تِلكَ الأوصافِ، وهيَ: مَخضودٌ، مَنضودٌ، مَمدودٌ، مَسكوبٌ، مَقطوعَةٌ، مَمنوعَةٌ، مَرفوعَةٌ. وفي هَذا النَّظمِ أبعَدُ أثَرٍ في تَصويرِ مَشهَدِ النَّعيمِ المُهَيَّإ على أتَمِّ صوَرِ الإعدادِ والإتقانِ.

فاسمُ المَفعولِ - في لُغَةِ العَرَبِ - يُشيرُ إلَى كَونِ المَوصوفِ مَحَلًّا لِعَمَلٍ فِعليٍّ قَصديٍّ، أي: إنَّ خَضدَ السِّدرِ، ونَضدَ الطَّلحِ، ومَدَّ الظِّلِّ، وسَكبَ الماءِ، ورَفعَ الفُرُشِ، كُلُّ ذَلِكَ فِعلٌ قَد تَوَجَّهَ نَحوَهُ فاعِلٌ عالِمٌ قادِرٌ، يَعمَلُ لِغَيرِهِ، في مَشهَدٍ مِن العِنايَةِ والإكرامِ.

وَمِن بَلاغَةِ هَذِهِ الصّيغِ أنَّها تُنبِئُ عَن حالَةٍ تامَّةٍ، وصِفَةٍ مُستَقِرَّةٍ، ولَيسَت فِعلًا آنيًّا أو حالًا طارِئًا، فكَأنَّ تِلكَ الجَنَّةَ قَد هُيِّئَت تَهيئَةً تامَّةً، وأُعِدَّت إعدادًا مُكتَمِلًا، وزوِّدَت بِكُلِّ ما تُحِبُّهُ النَّفسُ ويَهواهُ القَلبُ.

علّة فصل قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ﴾ عن السّابق:

بلاغةُ الانتقالِ من المَطاعِمِ والمَشارِبِ إلى أنسِ الأزواجِ

يحتمل أن يكون فصلُ قَوله تَعالَى: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ﴾ عَمّا قَبلَهُ إمّا لأنَّ الجملة مستأنفة لِبيانِ جِنسٍ آخَرَ مِنَ المَناحي النَّعيميَّةِ، يَستَقِلُّ في ذِكرِهِ ويَستَأنِفُ وصفَهُ، "والظّاهر أنَّ الإنشاء هو الاختراع

الَّذي لم يُسبَق بخلق، ويكون ذلك مخصوصًا بالحور اللّاتي لسْنَ من نسلِ آدم، ويحتمل أن يريد إنشاء الإعادة، فيكون ذلك لبنات آدم"[1]، وعلى هَذا يَكونُ الفَصلُ مِن بَلاغَةِ التَّقديرِ، وإبرازِ الجَليلِ في مَقامِ الجَميلِ، وفيهِ إشعارٌ بأنَّ المَذكورَ بَعدَهُ - وهُنَّ الحورُ - لَيسَ أقلّ قَدرًا مِمّا قَبلَهُ، بَل أشرَفُ مَكانَةً، وأثبَتُ في نُفوسِ النّاسِ.

ويحتمل أن يكون الفصل من كمال الاتِّصال، وذلك على تفسيرِ ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ بأنَّهنَّ النِّساء، فيكون قوله: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾، بيانًا للفرش؛ "لأنَّ الفُرُشَ محلُّ النّساءِ، فاكتفى بذِكرِ الفُرُش، يقول: (أنشأنا الصَّبيّةَ والعجوزَ إنشاءً جديدًا)"[2]. فيكونُ الفَصلُ لِكمالِ الاتِّصالِ بينَ الجملتَين؛ إذ تكونُ الجملةُ الثّانيةُ ذاتَ ارتباطٍ وثيقٍ بالجملةِ الأولى، مُبيّنةً موضّحةً لمعناها. فلم تُذكَرِ النّساءُ سابقًا؛ لأنَّ الفُرُشَ تُعَدُّ موضِعَهُنَّ، أو أنَّ الفُرُشَ نَفسَها هيَ الحورُ العينُ، فاكتُفيَ بذِكرِ الفُرُشِ.

دلالة توكيد الجملة ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ﴾:

جـلالُ الإنـشاءِ وبـديعُ القصدِ يستدعي توكيد المعنى وتوثيق المراد

التّوكيد في قَولِهِ تَعالَى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾ جاءَ لِعِدَّةِ دلالاتٍ بَلاغيَّةٍ، منها: التَّنبيهُ على عِظَمِ الشَّأنِ، ورِفعَةِ النِّعمَةِ: فقَد أُتيَ بـ(إنَّ) لِلتَّوكيدِ، وفي مَقامٍ لا يُساقُ فيهِ الخَبَرُ على طَريقِ الإفادَةِ فقَط، بَل ليُصبِغَ عَلَيهِ جَلالُ الخالِقِ فِعلًا وقَصدًا. ولدَفعِ ما قَد يَتَوَهَّمُهُ السّامِعُ مِنَ الإحالَةِ: إذ لَم تُعهَدِ النِّساءُ بهَذِهِ الصِّفاتِ الجَمعيَّةِ الخَلقيَّةِ - أبكارًا، عُرُبًا، أترابًا - فجاءَ التَّوكيدُ ليَرُدَّ على خَيالِ الوَهمِ، ويُثبِتَ أنَّهُ خَلقٌ خاصٌّ مِن صُنعِ اللّهِ تَعالَى بقَصدٍ وقُدرَةٍ. ولتَوقيفِ العَقلِ على مَوضِعِ العَجَبِ؛ فلَمّا كانَ السّياقُ في سَردِ نِعَمٍ مَحسوسَةٍ، جاءَ فجأةً ما يُنبِئُ عَن خَلقٍ بَشَريٍّ أُنشِئَ لِغايَةٍ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 82.
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 387.

نَعيميَّةٍ، فكانَ لا بُدَّ مِن لَفتِ النَّظَرِ بالإثباتِ المُؤَكَّدِ؛ ليَستَقِرَّ في الذِّهنِ أنَّ الأمرَ مَقصودٌ، لا عارِضٌ، وعَظيمٌ، لا هَيِّنٌ.

بلاغة استعمال مفردة ﴿أَنشَأْنَٰهُنَّ﴾:

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة الإنشاء في قَولِهِ تَعالَى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾، وذلك لدخول احتمالين في معنى الإنشاء، وهو "الخَلقُ والإيجادُ، فيَشمَلُ إعادةَ ما كانَ مَوجودًا وعُدِم، فقد سمّى اللّهُ الإعادةَ إنشاءً في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأَخِرَةَ﴾ [العنكبوت: 20]، فيَدخُلُ نساءُ المؤمنينَ اللّائي كُنَّ في الدُّنيا أزواجًا لِمَن صاروا إلى الجَنّة، ويشملُ إيجادَ نساءٍ أُنُفًا يُخلَقنَ في الجَنّة لِنَعيمِ أهلِها"[1]، فيُحتمل "أن يراد: اللّاتي إنشاؤهن، أو اللّاتي أُعيد إنشاؤهن"[2].

تعدُّد الاحتمالات للحقيقة والمجاز من مقاصد النّظم في اختيار المفردات

وفي دلالَةِ المفردةِ على الإعادَةِ والخلقِ جمعٌ بين المجاز والحقيقة في آنٍ: فالإنشاءُ قَد يَكونُ بمَعنَى الإعادَةِ على غَيرِ الصّورَةِ الأولَى - وذَلِكَ في حَقِّ نِساءِ الدُّنيا المُؤمِناتِ - فيَكونُ مَجازًا، وقَد يَكونُ بمَعنَى الخَلقِ البَديعِ المُستَحدَثِ - في حَقِّ الحورِ العينِ - وهوَ على الحَقيقَةِ، والجَمعُ بَينَ المَعنَيَينِ يَجمَعُ الأغراضَ في لَفظٍ واحِدٍ.

تعيين مرجع الضَّمير في قوله: ﴿أَنشَأْنَٰهُنَّ﴾:

بلاغة الإبهام في مرجع الضَّمير تفخيمٌ للنّعمة وتوسيعٌ للدّلالة

الضَّميرُ في قوله تعالى: ﴿أَنشَأْنَٰهُنَّ﴾ عائِدٌ إلَى مَوصوفاتٍ لَم تُذكَر صَريحًا قَبلَهُ، ولَم يَتَقَدَّم في السّياقِ ما يوَجِّهُهُ نَحوَ مَرجِعٍ مُعَيَّنٍ، وهَذا إبهامٌ قَصديٌّ؛ لِأنَّهُ إذا أُبهِمَ المَرجِعُ وعُمِّمَ في سياقِ الإنعامِ كانَ أبلَغَ في التَّوقيرِ، وأشمَلَ في المَدحِ.

وهَذا الإبهام يُفيدُ الاشتراكَ بَينَ أنواعٍ مُحتَمَلَةٍ، فهوَ يَشمَلُ نِساءَ الدُّنيا الصّالِحاتِ، والحورَ العينَ اللّواتي خَلَقَهُنَّ اللّهُ خَلقًا خاصًّا، فكانَ تَركُ التَّصريحِ بذِكرِهِنَّ أوفَقَ لِلتَّعميمِ، وأدَلَّ على الشُّمولِ،

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 301.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 461.

حَتَّى لا يُفهَمَ حَصرٌ وتَخصيصٌ. فضمير "المؤنَّث من ﴿أَنشَأْنَٰهُنَّ﴾ عائد إلى غير مذكور في الكلام ولكنَّه ملحوظٌ في الأفهام"[1].

وَزادَت هَذِهِ المُجمَلَةُ تَفسيرًا بقَولِهِ بَعدَ ذَلِكَ: ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾، فازدانت ببيانِ أنَّ المَرجِعَ نِساءٌ في نَعيمِ الجَنَّةِ، قَد أُعِدَّت صِفاتُهُنَّ على أكمَلِ ما تَشتَهيهِ النُّفوسُ.

اختلاف التّعبير في ذكر الحور العين عمّا ذكر في شأن السّابقين:

حـورٌ للمقرّبين وإنشاءٌ للمتّقين وتـنـوُّعٌ محتملٌ في حقِّ أصحابِ اليمين

في تَفاوُتِ النَّظمِ بَينَ مَقامِ السّابِقينَ ومَقامِ أصحابِ اليَمينِ في ذِكرِ النِّساءِ نُكتَةٌ بَليغَةٌ، تَتَجَلَّى في أنَّ السِّياقَ في ذِكرِ السّابِقينَ جاءَ فيهِ قَولُهُ تَعالَى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾، وقَد جاءَ ذَلِكَ صَريحًا بذِكرِ الحورِ العينِ، وهوَ تَعبيرٌ يَخصُّ نِساءَ الجَنَّةِ المَخلوقاتِ فيها وحدَهُنَّ، وهوَ أشبَهُ بالتَّنصيصِ على نَوعٍ واحِدٍ.

أمّا في مَقامِ أصحابِ اليَمينِ، فإنَّ السِّياقَ لَم يَذكُر لَفظَ (حورٍ عينٍ)، بَل جاءَ بقَولِهِ: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝٣٥ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾، وهَذِهِ الجُمَلُ - على ما فيها مِنَ الإبهامِ المَقصودِ - تَتَّسِعُ لِدُخولِ نِساءِ الدُّنيا الصّالِحاتِ والحورِ العينِ كِلَيهِما، فجاءَ التَّعبيرُ عامًّا مُجمَلًا، يُفيدُ الاشتِراكَ في الإنشاءِ والإعادَةِ، وذَلِكَ أبلَغُ في تَكريمِ المُتَّقياتِ مِن نِساءِ الدُّنيا، حَيثُ لَم يَقصُرِ المَنافِعَ على الحورِ العينِ.

والوَصفُ في قَولِهِ: ﴿أَبْكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ يُمكِنُ أن يَكونَ تَجديدًا لِمَن كانَت في الدُّنيا ثَيِّبًا، فتُبعَثُ في الجَنَّةِ على صِفَةِ البِكرِ، وتُجعَلُ على أروَقِ ما تَتَزَيَّنُ بِهِ المَرأةُ مِن مَحاسِنِ الخُلُقِ والخَلقِ، وهَذا كُلُّهُ يُفيدُ شُمولًا وإكرامًا.

فالاختِلافُ في النَّظمِ تَوجيهٌ بَلاغيٌّ قَصدُهُ: التَّوسيعُ في المَعنَى،

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 301.

والاشتِمالُ على نِساءِ الجَنَّتَينِ: نِساءِ الدُّنيا المُتَّقياتِ، والحورِ العينِ المَخلوقاتِ لِلجَنَّةِ، لكنَّه في السّابقين المقرّبين نصًّا بدخولِ الحور العين، وفي أصحاب اليمين احتمالًا.

غرض المفعول المطلق ﴿إِنشَآءً﴾:

تـوكـيـد معـاني الأفـعـال وتـعـظـيـم مـقـاصـدهـا فخامةٌ في البيانِ وعلوٌّ في المقام

دلالَةُ المَفعولِ المُطلَقِ في قَولِهِ تَعالَى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾، هيَ دلالَةٌ على تَفخيمِ الفِعلِ وتَعظيمِ شَأنِهِ، وفي ذلِكَ إبرازٌ لِعِظَمِ الصّنعِ وإتقانِ الخَلقِ، فإنَّ المَفعولَ المُطلَقَ يَأتي في العَرَبيَّةِ لِتَوكيدِ الفِعلِ، أو بَيانِ النَّوعِ، أو بَيانِ العَدَدِ، وهوَ هنا لِلتَّفخيمِ والتَّفخيمُ تَوكيدٌ مَعَ تَعظيمٍ.

والوَجهُ في ذِكرِ المَصدَرِ - مَعَ أنَّهُ مُفهومٌ مِنَ الفِعلِ - إظهارُ عَمَليَّةِ الإنشاءِ على نَحوٍ غَيرِ مَألوفٍ في خَلقِ النِّساءِ، إذ لَيسَ هُنَّ مِن نِتاجِ الوِلادَةِ، بَل هُنَّ مُبتَدَآتٌ خَلقًا، مُنشآتٌ إنشاءً خالِصًا بقُدرَةِ اللّه تَعالَى؛ فذِكرُ المَصدَرِ ﴿إِنشَآءً﴾ بَعدَ الفِعلِ ﴿أَنشَأْنَٰهُنَّ﴾ لَيسَ تكرارًا لفظيًّا، بَل هوَ إبرازٌ لِكَمالِ الفِعلِ والتَّنبيهِ على عَظَمَةِ ما وقعَ، فكَأنَّهُ يقولُ: (خَلَقناهُنَّ خَلقًا عَجيبًا، إنشاءً لا يُشبِهُهُ إنشاءٌ).

نوع الفاء ودلالتها في قوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ﴾:

فـاء التَّفريع في التَّعبير القرآنيّ تأسيس للإنشاء وتـفـصـيـل للجمال

الفاءُ في قَولِهِ تَعالَى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾ للتَّفريعِ، وهيَ تُفيدُ أنَّ ما بَعدَها ناتجٌ عَمّا قَبلَها، كَأنَّهُ تَفصيلٌ لِما تَقَرَّرَ في قَولِهِ: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾. فالدّلالَةُ الَّتي تُفيدُها هذِهِ الفاءُ هيَ دَلالَةُ التَّسَبُّبِ والتَّفريعِ، فإنَّ خَلقَهُنَّ خَلقًا بَديعًا مُبتَدَأً - وذلِكَ هوَ (الإنشاء) - قَد تَفَرَّعَ عَنهُ أن جُعِلنَ أبكارًا، عُرُبًا، أترابًا. وهَذا يُفيدُ أنَّ تِلكَ الصِّفاتِ لَم يَكُن وُجودُها على سَبيلِ الاتِّفاقِ، ولا على وجهٍ غَيرِ مَقصودٍ، بَل هيَ مُرادَةٌ بإرادَةِ الخالِقِ، جاءَت تَبَعًا لِذلِكَ الإنشاءِ العَجيبِ الَّذي بَدَأَهُ، وذلِكَ لِما فيهِ مِن تَكريمِ أصحابِ اليَمينِ وإسباغِ نِعمَةٍ خالِدَةٍ عَلَيهِم. فالمعنَى أنَّهُ لَم يُنشِئهُنَّ فقَط، بَل أتبَعَ ذلِكَ الإنشاءَ الجَديدَ

تَخصيصًا لَهُنَّ بتلكَ الصِّفاتِ الَّتي تَجعَلُهُنَّ غايَةً في الجَمالِ واللَّطافَةِ والمَحَبَّةِ.

نوع الجعل ودلالته:

معنى الصَّيرورةِ والتّحوّل من الإنشاء العامِّ إلى الوصف الخاصِّ

الجعلُ في قولهِ تَعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾ هو جعلٌ تحويليّ، لا تكوينيٌّ ابتدائيّ، ودلالتُهُ على هذا المعنى ناشئةٌ من السّياقِ الَّذي سَبَقَهُ، وهو قوله: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾، إذ الإنشاءُ يُفيدُ الإيجادَ ابتداءً، وأمّا الجَعلُ بعدَه فمُفيدٌ لتَحوُّلٍ في الكيفيّةِ أو الوصفِ. فالمعنى: أنّ اللّهَ تعالى أنشأهنّ خلقًا جديدًا، ثمَّ جعلهنّ - بهذا الخلقِ - أبكارًا، عُرُبًا، أترابًا، فالجعلُ هنا يتضمّن تحوّلًا في الصِّفاتِ، لا مجرَّدَ الإيجادِ، فهو جعلٌ لما هو موجودٌ على صفةٍ أخرى مباينةٍ لما كان عليهِ. ويدلّ ذلك على: قصديّةِ الجمالِ والكمالِ في أوصافِهنّ، إذ لم تُجعلِ البكارةُ ولا سائرُ الأوصافِ على سبيلِ الطَّبعِ، بل كانت بصنعٍ وتدبيرٍ وتقديرٍ إلهيٍّ.

غرضُ التَّعبير بفعل الجعل:

إظهارُ نِعَمِ دارِ النّعيمِ من النّعيمِ المعجَّل

جاء التّعبير بفعل الجعلِ في قولهِ تَعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾ لإظهارِ العنايةِ والاصطفاءِ والتَّخصيصِ، فإنّ لفظَ (جعل) كثيرًا ما يأتي في القرآنِ ليدلّ على التَّخصيصِ والتَّشريفِ، كما في قولِه: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ [المائدة: 20]، وقولِه: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾ [الأنبياء: 73]. إذ يُفيدُ هذا التَّعبيرُ في السّياقِ أيضًا تدرّجَ الإنعامِ، من الإنشاءِ ثمَّ الجعلِ ثمَّ التَّوصيفِ بالأبكارِ والعُرُبِ والأترابِ، ممّا يوقظُ الشُّعورَ بعِظَمِ النِّعمةِ وتوالي الرِّفعةِ. فهو جعلٌ لتحويلٍ مقيّدٍ بأوصافٍ مخصوصةٍ، دالٍّ على الإكرامِ، والاصطفاءِ، والتَّنعيمِ التّامِّ.

غرض الجمع للفظ ﴿أَبْكَارًا﴾:

جُمِع لفظ ﴿أَبْكَارًا﴾ أي: شيئًا واحدًا، وسنًّا واحدًا[1]، وغرضُ

(1) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 387.

الإفادةُ بالتَّنوُّعِ والوفرةِ والتَّماثلِ في الحالِ الكريمةِ

الجمعِ الإفادةُ بالتَّنوُّعِ والوفرةِ والتَّماثلِ في الحالِ الكريمةِ، وذلك على ما جرى به الأسلوبُ القرآنيُّ في مقامِ الامتنانِ والإكرام، وقد خُصَّ الجمعُ هنا بدلالاتٍ دقيقةٍ، هي: الإشعارُ بتعدُّدِ الأفرادِ: فالجمعُ يدلُّ على أنّ الإنشاءَ والجعلَ لم يقع على واحدةٍ، بل على نساءٍ كثيراتٍ، فكلّ واحدةٍ منهنّ قد جُعلت بكرًا، وهذا أوضح في رعايةِ الوصف من وصفهنّ بلفظ المفرد (بكرًا)، وقد طابق الجمعُ قوله: ﴿فَجَعَلْنَـٰهُنَّ﴾، فجاء مفعوله ﴿أَبْكَارًا﴾ على وزنه، لتتّسق البنيةُ. وإفادةُ التَّخصيصِ والتَّكريم: فإنّ الجمعَ هنا لا يُرادُ به الحصرُ العدديُّ فقط، بل البيانُ عن حالٍ معنويٍّ مكرَّرٍ مُرادٍ لذاته، وهو حالُ الطَّهارةِ والعفّةِ، فكلّ واحدةٍ منهنّ قد أُعيدت إلى أصلِ خلقتها على أتمِّ حالٍ من الكمالِ.

توجيه وصفهنَّ بالأبكار:

البكارةُ وصفٌ دائمٌ وحالٌ ملازمٌ لا يزول بكثرة المعاودة

جعل النِّساء ﴿أَبْكَارًا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَـٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾ يأتي متّسقًا مع ما تقدّم من قوله: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَـٰهُنَّ إِنشَآءً﴾، إذ الإشارة إلى (الإنشاء) تدلّ على إيجادٍ مستأنف، لكنّه لا يُقصر على الخلق الابتدائيّ فحسب، بل يتّسع ليشمل معنى الإعادة أيضًا، وبهذا يُفهم أنَّ بعض المَعنيّات بضمير ﴿أَنشَأْنَـٰهُنَّ﴾ هنّ من نساء الدُّنيا، أُعيد إنشاؤهنّ إنشاءً جديدًا، على هيئة أكمل وأبهى.

يذكر البقاعيُّ في تفسيره قوله: "ولمّا كان للنَّفس أتمُّ التفاتٍ إلى الاختصاص، وكان الأصل في الأنثى المنشَأة أن تكون بكرًا، نبَّه على أنَّ المراد بكارةٌ لا تزول إلّا حال الوطء ثمَّ تعود، فكلَّما عاد إليها وجدها بكرًا، فقال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَـٰهُنَّ﴾؛ أي الفرش الثَّيبات وغيرهنَّ بعظمتنا المحيطة بكلِّ شيء ﴿أَبْكَارًا﴾؛ أي بكارة دائمة؛ لأنَّه لا تغيير في الجنَّة ولا نقص"[1].

ومن هنا كان وصف ﴿أَبْكَارًا﴾ مقصودًا لذاته؛ إذ يدلّ على

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 410.

عودهنّ إلى حال البكارة، بعد أن كنّ في الدُّنيا غير ذلك، فصار هذا الوصف غايةً في الإكرام، إذ هو لا يعبّر فقط عن فُتوَّة الجسد، بل عن طهر الحالة، ونقاء المبدأ، ومحاسن البدايات.

ولمّا كان الجعل في قوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا﴾ متعلّقًا بتحويل حالة إلى حالة، جاء هذا التَّعبير مكمّلًا لمعنى الإعادة في (الإنشاء)، فاندمج الإنشاء والجعل في دلالة واحدة تُشير إلى تجديد الخلقة وتجديد الصِّفة، فجُعلن أبكارًا لا خلقًا فقط، بل صفةً أيضًا.

بلاغة التَّناسب بين وصف البكارة وما قبلها:

ناسب وصفُ النِّساء بالبكارة سياقَ الآيات السّابقة، فإنَّ هذا التَّعبير يوائم تمامًا طبيعة النَّعيم المذكور في الآيات، فهو نعيمٌ لا يُبقي أثرًا من تعب الدُّنيا، بل يُعيد الأشياء على أحسن ما كانت عليه، فكما جُعل الظِّلُّ ممدودًا، والماء مسكوبًا، والفاكهة غيرَ مقطوعة، كذلك جُعلت النِّساء أبكارًا؛ أي جُدّد لهنّ العهد بالبدايات النَّقيّة، الَّتي لا يشوبها نقص، ولا يعتريها فتور فأصبحت من لوازم النِّساء، كما أنَّ مدّ الظِّلِّ وسكب الماء وبقاء الفاكهة كذلك مستمرٌّ.

بلاغة استعمال مفردة ﴿عُرُبًا﴾:

أعربت مفردةُ العُرُب عن التّودُّد وكمال الأُنس، وبلاغة الإعراب عمّا في الأنفس

آثر النّظم الكريم استعمال مفردة ﴿عُرُبًا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾، وهي على وزن (فُعُل) جمعًا لكلمة (عروب)، وهي مأخوذة من لفظ عرب، "قال الرّازيُّ في اللَّوامع: الفَطِنةُ بمراد الزَّوج كفطنة العَرَب"[1]، أو الَّتي تُعرب عمّا يجول في الأنفسِ ممّا يصعب على قريناتِها، وهي: المتحبّبة إلى زوجها[2]، والعاشقة له[3]. أو الَّتي لها كيفيَّة المتحبِّبة، وإن لم تقصد التَّحبُّب،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 410.
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 387، والزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 461.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 82.

بأن تكثر الضَّحِك بمرأى الرَّجل أو المزاحَ أو اللّهو أو الخضوع في القول أو اللَّثغ في الكلام بدون علَّة أو التَّغزُّل في الرَّجل والمساهلة في مجالسته والتَّدلُّل وإظهار معاكسة أميال الرَّجل لعِبًا لا جِدًّا[1]. وهي خلاف المرأة المتجهِّمة أو المتعجرفة أو البكماء أو الغليظة. وقد جاء التَّعبير بها دون غيرها من ألفاظ المحبَّة والإيناس؛ لأنَّها أشمل وأدقُّ في تصوير المرأة الَّتي بلغت الغاية في ملاطفة الزَّوج ومؤانسته ومباسطته، لا بجمال ظاهر فحسب، بل بحسن خلق وجاذبيَّة نفس، وصدق حسّ.

ومن فوائد استعمال هذه المفردة، أنَّه "لمّا كان ممّا جرت به العادةُ أنَّ البكر تتضرَّر من الزَّوج لما يلحقها من الوجع بإزالة البكارة، دلَّ على أنّه لا نكد هناك أصلًا بوجع ولا غيره بقوله: ﴿عُرُبًا﴾"[2].

دلالةُ استعمال مفردة ﴿أَتْرَابًا﴾:

تمام النِّعمة في التَّوافق الوجدانيّ والاتِّساق الخُلقيّ في الجنَّة

دلّ لفظ ﴿أَتْرَابًا﴾ وهي جمع تِرب في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾، على أنَّ المرادَ بهنَّ المستويات في السِّنِّ بنات ثلاث وثلاثين، وأزواجهنّ أيضًا كذلك[3]. وهي المرأة الَّتي ساوى سنُّها سنَّ من تُضاف هي إليه من النِّساء، فالمعنى: أنَّهنّ جُعلن في سنٍّ متساوية لا تفاوت بينهنَّ، أي هنَّ في سنِّ الشَّباب المستوي فتكون محاسنهنَّ غير متفاوتة في جميع جهات الحُسن، وعلى هذا فنساء الجنَّة هنَّ الموصوفات بأنَّهنَّ (أتراب) بعضهنَّ لبعض[4]. ولمّا كان الاتِّفاق في السِّنِّ أدعى إلى المحبَّة ومزيد الألفة قال: ﴿أَتْرَابًا﴾ وهو مأخوذ من لَعِبِ الصِّبيان بالتُّراب[5]. وتأتي مفردة ﴿أَتْرَابًا﴾ في موضعٍ بالغ الدِّقَّة من جهة النَّظم والبلاغة، لتكون ختامًا لوصفٍ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 301.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 410.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 461.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 302.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 410.

ثلاثيّ تتجلّى فيه أبعاد الجمال الحسّيّ والمعنويّ في نساء الجنّة اللّائي أُعدِدن لأصحاب اليمين.

بلاغة المناسبة بين البكارة والعرب والتِّرْب:

الجمْعُ بين صفةِ الذّات والزّمان والحالِ، في ظرفٍ متناهٍ في البهاء والجمال والكمال

اجتمعت ثلاثُ صفاتٍ في نعت نساء الجنَّة في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾، فدلّ ﴿أَبْكَارًا﴾ على صفةٍ دائمة ثابتة لا تزول، وهي صفة ذات في المرأة، ودلَّ لفظ ﴿عُرُبًا﴾ على صفةِ حالٍ مستحسنة تُكمِّل جمال صفة الذّات، ودلّ لفظ ﴿أَتْرَابًا﴾ على صفة عُمرٍ وزمان، وهو ما يدلّ على كمال المناسبة بينهنّ وبين أزواجهنّ من جهة السِّنّ والعمر، وهو أمرٌ بالغ الأثر في تحقيق الانسجام العاطفيّ والنَّفسيّ؛ فإنَّ تساوي الأزواج في السِّنّ يورث التَّآلف، ويزيل فوارق الزَّمان، ويجعل العلاقة أنسبَ وأقرب، فهذه الأوصاف الثَّلاثة نادت على حالةٍ غير موجودةٍ في الدُّنيا، وهي جامعة بين محاسن النِّساء في ظرفٍ متناهٍ في الجمالِ والكمال والتَّمام.

براعةُ ترتيب الأوصاف:

الطُّهر الخَلقيُّ فالحُسن الخُلقيُّ فالانسجام الزَّمانيُّ الجامع للأوصاف المستملحة المتضادّة

جاء ترتيب الأوصاف الثَّلاثة في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ في نسقٍ بالغ الحكمة، منسجمٍ مع طبائع النَّفس ومراتب التَّذوُّق الجماليِّ، يُراعي تنقّل الذِّهن من الوصف الخَلقيِّ إلى الخُلُقيِّ إلى المقارن، ويُبرز تكامل الصّورة المقصودة في سياق النَّعيم المُعَدّ لأصحاب اليمين. فأوَّلُ ما يلفت النَّظر في هذا النَّظم، هو تقدُّم وصف ﴿أَبْكَارًا﴾، إذ هو الأصل الخَلقيّ، والدَّلالة على السَّلامة من سابقة معاشرة، وهو ما تميل إليه النَّفس وتَستَحسِنه الفطرة في صورةٍ من الكمال البَدنيّ. فـ(البِكر) في التَّصوُّر الإنسانيّ مُقَدّمة على غيرها لِما فيها من صفاء النَّشأة وخلوّ التَّجربة.

ثمَّ يأتي الوصف الثّاني ﴿عُرُبًا﴾، وهو وصفٌ خُلُقيّ نفسيّ، يدلّ على التَّودُّد والمحبّة والملاينة، وهو وصفٌ لا يتحقّق عادةً إلّا بامتلاك

الخبرة والتَّجربة، وهو جمعٌ بين المحاسن المتضادّة بإكرامٍ ربّانيٍّ بديع، فالله أنشأهنّ على طبائع المحبّات المتودِّدات، دون حاجة إلى تعلُّم أو تمرين، فذلك كمالٌ خُلقيٌّ إلى جانب الكمال الخَلقيِّ. ثمَّ خُتِم الوصف بـ ﴿أَتۡرَابٗا﴾، أي المتساويات في السِّنّ، في دلالةٍ على الانسجام وعدم التَّفاوت، وهو وصفٌ يُكمّل الجمالين السّابقين بجمالٍ آخر، جمال التَّناسق والتَّماثل، إذ تُشعر هذه المماثلة في السِّنّ بالرّاحة وعدم التَّفاوت الَّذي قد يولّد نفورًا أو تباينًا في التَّلقّي.

وهكذا، جاء ترتيب هذه الأوصاف من الأساس إلى الكمال إلى التَّناسق: من الخلق النَّقيّ البكر، إلى الطَّبع اللَّطيف المتودِّد، إلى المساواة المطمئنة في الأعمار. وهو جمعٌ لا يُتوَصَّل إليه في الدُّنيا؛ إذ لا تجتمع البكارة مع خبرة التَّودُّد، وندر أن يصاحب ذلك توافق الأعمار مع جماعة من النِّساء، فدلّ ذلك على خصوصيّة هذا النَّعيم، وأنّه مُعَدٌّ إعدادًا خاصًّا بقصد الإكرام الكامل والسُّرور التّامِّ لأصحاب اليمين.

نوع اللّام ودلالتها في قوله: ﴿لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾:

جمعتِ اللّامُ بين دلالة الاستحقاق والتَّخصيص والتَّشريف في ختام سياق النَّعيم

فـ(اللّامُ) في قولهِ تعالى: ﴿لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ هي لامُ الاستحقاق والتَّخصيص، وهي متعلّقةٌ بمحذوفٍ دلّ عليه السّياق، والتَّقدير: ذلك النَّعيم لأصحاب اليمين، أو جعلناهنّ لأصحاب اليمين، فيكون في ذلك مزيدُ بيانٍ لقَصدِ الإعداد، أي إنَّ الإنشاءَ والجَعلَ إنَّما كانا لهم خالِصَين دونَ سواهم؛ فقد تنازعها ﴿أَنشَأۡنَٰهُنَّ﴾ و﴿فَجَعَلۡنَٰهُنَّ﴾، فالإنشاء والجعل كان لأصحاب اليمين؛ لإفادة توكيد الاعتناء بأصحاب اليمين المستفاد من المقام من قوله: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾[1]. "ولمّا كان هذا الوصف البديع مقتضيًا لما يزدهي عنه النّفس؛ لأن يقال: لمن هؤلاء؟ وإن كان قد علم قبل ذلك، نبّه

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 303.

عليه بقوله تعالى: ﴿لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ ويجوز أن يتعلَّق بـ ﴿أَتۡرَابًا﴾ نصًّا على أنّهُنَّ في أسنان أزواجهنَّ"[1]، كقولك: هذا تِرْبٌ لهذا أي: مُساوٍ له[2].

فجمعَت اللّام بذلك دلالاتٍ ثلاثًا: الاستحقاق، والتَّخصيص، والتَّشريف. وكلُّها تُفضي إلى تصويرٍ أدقّ لمعنى الاصطفاء الإلهيّ في الجزاء، وتُبرِز منزلةَ أصحاب اليمين في جنابِ الرَّحمة الرَّبّانيّة.

دلالة ذكر (أصحاب اليمين) بالإظهار:

توكيد هويَّة أصحاب اليمين بالإظهار تفخيم لمنزلتهم وإعلاء لمكانتهم

بعد أن تقدَّم ذكرُ أصحاب اليمين مرّتَين في صدر السّياق في قوله تعالى: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾، ثمَّ طال الحديث في وصف ما أُعدّ لهم من النَّعيم، ناسب الإظهار مع جواز الإضمار، وذلك لنكتة جليلة، وتوجيه دقيق يليق بنظم القرآن الكريم. فهذا الإظهار بعد إمكان الإضمار يحمل دلالةً من أبرز دلالات التَّوكيد والتَّمكين، إذ يُعيد الاسم مقرونًا بالصِّفة الجليلة الَّتي تُشير إلى مقامهم ودرجتهم، فيُثبِّتها ويُؤكِّدها في النَّفس من جديد، ويُقرّع بها الأسماع كأنَّما يقول: هؤلاء، نعم هؤلاء أصحاب اليمين هم الَّذين خُصّوا بهذا النَّعيم دون غيرهم.

ثمَّ إنَّ إعادة الاسم على هذا الوجه تُفيد التَّفخيم والتَّشريف، كأنَّما أعيد الاسم لا لمجرَّد التَّذكير، ولكن ليُذكر على جهة الإعلاء والتَّنويه: فأين أصحاب اليمين؟ هؤلاء هم أصحاب اليمين. لهم ذلك كلّه!.

براعة التَّعريف بأصحاب اليمين في نهاية المقطع:

ختمُ النِّهايات بمطالع البدايات براعةٌ في سرد النِّعَم السّابغات

تتجلّى براعةُ النَّظم في هذا المقطع الكريم في الطَّريقة الَّتي خُتِمَ بها وصفُ نعيمِ أصحابِ اليمينِ، فقد سُرِدت مظاهرُ النَّعيم سردًا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 410.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون في علوم الكتاب المكنون: 10/ 208.

متدرّجًا يأخذُ بالوجدانِ، من الأشجارِ الظَّليلةِ، والثِّمارِ الكثيرةِ، والماءِ المسكوب، والفرشِ المرفوعةِ، إلى من يسكُنُ تلك النِّعَمَ من نساءٍ أُنشِئنَ إنشاءً جديدًا، وجُعِلنَ أبكارًا، عُرُبًا أترابًا، ثمَّ جاءت الجملةُ الخاتمةُ: ﴿لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾، لتُعيدَ القارئَ إلى نقطةِ البدءِ، وتشدَّ عُقدَ البيانِ بعد أن انبسطَ، وتربطَ كلَّ تلك النِّعَمِ بمن أُعدَّت لهم، فيتحقّق بذلك التَّخصيصُ بعد الإبهامِ، ويتّضحُ الغرضُ بعد التَّمهيدِ.

توجيه ختم المقطع بتعريف أصحاب اليمين بخلاف مقطع السّابقين المقرّبين:

أُخِّر تعريفُ أصحاب اليمين إلى خاتمة مقطعهم في قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ بعد تعداد نعيمهم، بخلاف ما جاء في شأن السّابقين الَّذين بُدئ بتعريفهم بقوله: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ وذلك يحمل دلالة بليغة تدور على أنَّ المقام في وصف أصحاب اليمين مقامُ ترغيبٍ وتفصيلٍ في مظاهر النَّعيم، لا مقام تعريف مباشر كما في حال السّابقين، إذ جاء النَّسق هنا أن يُشرَع أوّلًا بذكر ألوان النَّعيم المتنوِّعة الَّتي حُفّوا بها، من الأشجار والثِّمار والأنهار والظِّلال والفرش والنِّساء، ممّا يملأ النَّفس شوقًا وتطلُّعًا، فيظلُّ السّامع معلَّق الذِّهن يتساءل: من هؤلاء؟ حتَّى إذا اكتمل بيان النَّعيم قيل في نهاية المقطع: ﴿لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ ثمَّ أُتبع ببيان كثرتهم: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾، ليجيء التّعريف في موضعه الأكمل، بعد أن تمهَّد له الذّهن، وتشوّفت النّفس لمعرفة من استحقَّ هذا الفضل، فيقع الخبر موقع البشارة المؤكَّدة، بخلاف السّابقين المقرّبين، فقُدِّم ذكرهم، "وإنَّما أخَّر هذا عن ذكر ما لهم من النَّعيم للإشعار بأنَّ عزَّة هذا الصِّنف وقلَّته دون عزَّة صنف السّابقين، فالسّابقون أعزُّ، وهذه الدَّلالة من مستتبعات التَّراكيب المستفادة من ترتيب

التَّمهيد بالنَّعيم والتَّشويق بالتّأخير دليلٌ على مكانةٍ عالية وتعلوها مكانة السّابقين

نظم الكلام إفضاءً إلى الصِّنف الثّالث من الأزواج الثّلاثة، وهم أصحاب المشأمة"[1].

بلاغة استعمال مفردة ﴿ثُلَّةٌ﴾:

اصطفاء الثّلّة من مجموع الأمم السّابقة ومن مجموع الأمّة المحمّديّة

وَهذا يَنسَجِمُ مع سياقِ امتِنانٍ وتَكريم، فحينَ يُقال: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾، يُفيدُ ذلك أنَّ أصحابَ اليمينِ طائفةٌ كثيرةٌ من الأوَّلينَ وطائفةٌ كثيرةٌ من الآخرينَ، وكُلُّ واحِدةٍ مِنها جَماعةٌ مُختارةٌ مُصطفاةٌ، لا كَثرةً مُبتَذَلةً ولا ازدِحامًا عَشوائيًّا، بَل كَثرةً ذاتَ طابِعٍ انتِقائيٍّ. فجاءَ التَّعبيرُ بـ﴿ثُلَّةٌ﴾ ليُراعيَ الجانِبَينِ: العَدَدَ والاصطفاءَ، وهوَ ما لا تُؤدّيه (جَماعة) أو (فَريق) ونَحوُهما مِن الألفاظِ، فكانَت ﴿ثُلَّةٌ﴾ أنسَبَ اللَّفظِ في هذا السّياقِ البَليغِ، فسُبحانَ مَن هذا كَلامُهُ.

نكتة تنكير لفظ ﴿ثُلَّةٌ﴾:

تعظيم الثُّلّة وتفخيم أهلها بتحقيق موازنة بين جهتين

نُكتَةُ تَنكيرِ لَفظِ ﴿ثُلَّةٌ﴾ في قَولِهِ تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ تَرجِعُ إلى قَصدِ التَّفخيمِ مِن جِهةٍ، وإفادةِ التَّنويعِ مِن جِهةٍ أُخرى، وذلك بأسلوبٍ بَليغٍ يَفتحُ بابَ التَّصوّرِ ويُحرّرُ الذِّهنَ مِنَ التَّحديدِ العدَديِّ أوِ الكَيفيِّ الّذي قد يوحي بهِ التَّعريفُ.

فالتَّنكيرُ هُنا يُشعِرُ بكَثرةٍ غيرِ مَحصورةٍ، وجَماعةٍ عظيمةٍ غيرِ مُتوقَّعةٍ، لا تُقاسُ بمقياسٍ مَحدودٍ، ولا تُدرَكُ حُدودُها إلّا بَعدَ التَّأمّلِ في وصفِ النَّعيمِ المُعَدِّ لها. والتَّنكيرُ في مِثلِ هذا المَقامِ يُكسِبُ الكلمةَ سِمةَ التَّعظيمِ، كأنَّما يُقالُ: (ثُلَّةٌ عظيمةٌ لا يُدرى قَدرُها)، دونَ أن تُقيَّدَ بمدى أو عددٍ مُعيَّن.

بلاغة موقع ﴿ثُلَّةٌ﴾ الإعرابيّ وتناسبه البيانيّ:

في التَّعبيرِ القُرآنيِّ البَليغِ في قَولِهِ تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٩

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 303 - 304.

الفائدة في الأخبار ومعرفة أصحاب اليمين تشوّقت له النُّفوس وتطلَّعت إليه الأرواح

﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾، جاءَت كَلِمَةُ ﴿ثُلَّةٌ﴾ خَبَرًا عن مُبتدَأٍ مَحذوفٍ تَقديرُه (هُم)، أي: هُم ثُلَّةٌ مِن الأوَّلينَ وثُلَّةٌ مِن الآخِرينَ، والخَبَريَّةُ تُفيدُ تَمامَ بَيانِ أصحابِ اليَمينِ بَعدَ أن فُصِّلَ ما أُعِدَّ لَهُم مِن ألوانِ النَّعيمِ، فكَأنَّ كُلَّ ما تَقدَّمَ مِن ذِكرِ السِّدرِ المَخضودِ، والطَّلحِ المَنضودِ، والظِّلِّ المَمدودِ... إلخ، إنَّما هوَ تَشويقٌ وتَمهيدٌ، ثُمَّ جاءَ في خِتامِ ذلكَ البَيانِ قَولُه: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾، فيَكونُ التَّعبيرُ جُملةً اسميَّةً خُتِمَ بها هذا المَقطعُ لِلإخبارِ عن أصحابِ هذا النَّعيمِ.

نوع ﴿مِّنَ﴾ ودلالتها:

﴿مِّنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وقوله: ﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ للتّبعيض، فالثُّلّة هي بعض الأوَّلين، وبعض الآخرين لا كلّهم، وهذا البعض هو الأقلُّ من مجموع الأوَّلين، لكنَّه ثلّة باعتبارِ ما ثبت عليه وارتضاه.

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾:

استغراق الزّمان السّابق لهذه الأمّة

أفاد تعريف لفظ ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ استغراق الجماعة المعهودة في الأمم السّابقة، وقَد أتى اللَّفظُ مُعَرَّفًا بـ(أل)؛ ليُشيرَ إلى فِئَةٍ مَعلومةٍ مَشهورةٍ بَينَ النّاسِ، وهم جميع الأمم السّابقة لهذه الأمَّة، فالتّعريف؛ لاستغراق جميع أفراد الأمم.

دلالة التّقابل بين ﴿ثُلَّةٌ﴾ و﴿وَثُلَّةٌ﴾:

تسويةٌ في الفضل، وتثبيتٌ للرَّجاء، وتساوٍ في العدد، وتطابق في النّعيم

مُقابَلَةُ ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ بـ ﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ جاءَت بأسلوبٍ موازَنٍ بَديعٍ يُشيرُ إلى التَّساوي في العَدَدِ والمكانَةِ، وفيهِ تَطييبٌ لِخاطِرِ المُتأخِّرينَ بأنَّهُم لَيسوا أقَلَّ حظًّا مِنَ الأوَّلين، بَل إنَّ لَهُم نَصيبًا وافِرًا في جَنّاتِ النَّعيمِ، تَمامًا كما كانَ لِلأوَّلين، وقَدِ اختيرَت لَفظَةُ ﴿ثُلَّةٌ﴾ - وهي تَدُلُّ على جَماعَةٍ دونَ تَعيينِ عَدَدٍ - ليَتَّسِقَ الطَّرفانِ مِن جِهةِ اللَّفظِ والدّلالَةِ، فكانَتِ الموازَنَةُ بَينَهُما مِن حَيثُ الجِنسُ والعَدَد دالَّةً على المساواةِ.

وَمِن جِهَةٍ أُخرى، فإنَّ تَكرارَ اللَّفظِ ذاتِه في المُقابلَتَينِ دونَ تَغييرِهِ إلى مُرادِفٍ (كَجَماعَةٍ أو رَهطٍ أو نحوَ ذلك) يُرسِّخُ في الذِّهنِ وحدَةَ النِّعمَةِ وشُمولَها، ويُفيدُ أيضًا التَّوازُنَ العَدَديَّ والمعنويَّ، فيَتَحقَّقُ بذلكَ المَقصودُ مِن بَثِّ الطُّمَأنينَةِ إلى كُلِّ مؤمِنٍ بأنَّهُ لَيسَ بَعيدًا عَن مَنازِلِ الكَرامَةِ، وإن تَأخَّرَ زَمانُهُ، ما دامَ قد صَدَقَ الإيمانَ، واتَّبَعَ سبيلَ الدَّيّان.

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلۡأٓخِرِينَ﴾:

جاء تَعريفُ لَفظِ ﴿ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ في قَولِهِ تعالى: ﴿وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ على نَمطِ ما سَبَقَ مِن تَعريفِ ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾؛ فهو لاستغراقِ جميع أفراد هذه الأمّة.

دلالة الطِّباق بين ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ و﴿ٱلۡأٓخِرِينَ﴾:

استغراق الزّمان كلّه في الامتداد في ثواب أصحاب اليمين

طابق النّظم بَينَ ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ و﴿ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ في هذا السّياقِ، ليَأتي على غايَةٍ مِنَ البَلاغَةِ في الكَشفِ عن سَعَةِ فضلِ اللهِ، وامتدادِ رَحمَتِهِ في جِنانِه، فالطِّباقُ يُفيدُ الشُّمولَ ويَدُلُّ على احتواءِ الأجناسِ المُتناقِضَةِ، لَكنَّها هُنا مُتشابِهَةٌ في كُلِّ شَيءٍ إلّا في أزمانِها الّتي قَدَّرَ اللهُ لَها أن تَعيشَ فيها. ليُظهِرَ أنَّ نَعيمَ أصحابِ اليَمينِ لَيسَ حِكرًا على زَمَنٍ دونَ زَمَنٍ، ولا على سابِقَةٍ دونَ لاحِقَةٍ، بَل هو مَفتوحٌ لِكُلِّ مَن استَحقَّهُ مِن الأُمَمِ الأولى ومِن هذِهِ الأُمَّةِ، مِن سالِفِ الدُّهورِ ومِن آخِرِها، ما داموا قدِ اجتَمَعوا على الإيمانِ والعَمَلِ الصّالِحِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

السَّكب والصَّبُّ:

السَّكبُ انسياب المصبوب بسلاسةٍ والصَّبُّ دفعة واحدة

السَّكبُ: هو الصَّبّ المتتابع المنتظم، لا على دفعاتٍ مفصولة، بل على وجه الاستمرار، ومنه قيل للفرسِ السَّكوب: إذا كان يُتابع الجريَ دون توقّف. والسَّكبُ بهذا المعنى يوحي بحالة دوام لطيفٍ، ولهذا قيل في الجنّة: ﴿وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ﴾، أي دائمٌ، مهيّأٌ للسَّكب في

كلّ آنٍ، لا ينقطع ولا يضطرب[1]. ففي قَولِهِ تعالى: ﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾، اختارَ القُرآنُ الكَريمُ لَفظًا دَقيقًا رَقيقًا يَحملُ في حُروفِهِ وجَرسِهِ وظِلالِهِ، صورَةَ الماءِ الجاري بلا انقطاعٍ، المُنهَمِرِ في سَلاسَةٍ ورِقَّةٍ، دونَ عُنفٍ ولا انصبابٍ صاخِبٍ. ولَو تَأمَّلتَ هذا اللَّفظَ في ضَوءِ الفُروقِ الدَّقيقةِ بَينَ ألفاظِ السَّيلانِ والانصِبابِ، لَوَجَدتَ أنَّ لِكُلٍّ مِنها طَبيعَةً حِسّيَّةً ونَفسيَّةً مُختَلِفَةً، تُناسِبُ المَقامَ الَّذي تَرِدُ فيهِ.

أمّا الصَّبُّ: فيَدُلُّ على الإفراغِ المُفاجِئِ أوِ الدَّفعَةِ الواحِدَةِ، كَمَن يَصُبُّ السّائِلَ دَفعَةً في قالِبٍ أو إناءٍ، فهو أقرَبُ إلى القوَّةِ المُباغِتَةِ مِنَ الانسيابِ الهادِئِ، لِذا يُناسِبُ مَواطِنَ الشِّدَّةِ والعَذابِ، كما في قَولِهِ تعالى: ﴿صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾﴾ [الدُّخان: 48].

الإنشاء والخلق:

الإنشاءُ يَدُلُّ على الإحداثِ شيئًا فشيئًا، حالًا بعدَ حالٍ، مِن غيرِ احتذاءٍ على مثالٍ سابقٍ، ولهذا يُقال: نشأ الغُلامُ إذا نما وتدرّج في مراحلِ البُلوغِ والاكتمالِ، والنُّشوءُ اسمٌ للحالةِ لا للنَّتيجةِ. وفي هذا المعنى إشعارٌ بالنَّماء المصحوبِ بالرِّعايةِ والتَّوجيهِ والامتدادِ التَّدريجيِّ، بل قد يُرادُ به ابتداءُ الإيجادِ من غيرِ سببٍ مادّيٍّ ظاهرٍ، أي إنّهُ تَفجُّرُ الوجودِ من محضِ القُدرةِ الإلهيّةِ، لا من استعدادٍ سابقٍ ولا تفاعلٍ معروفٍ[2]. ولهذا وُظِّفَ في سورة الواقِعَة في قوله: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾، لأنّ الحديث عن بعثٍ جديدٍ مباينٍ تمامًا للخلق الدُّنيويِّ، فهو تكوينٌ ابتدائيٌّ متقوّمٌ بذات القدرة الإلهيَّة، غير مسبوقٍ بمادَّةٍ ولا مولدٍ ولا طورٍ بيولوجيّ، وإنَّما هو إبداع مخصوص لحال مخصوصة، متعلِّقة بأوصافٍ تليها: ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾، فالإنشاءُ تمهيدٌ للتَّخصيص والتَّكريم، لا لمطلق الإيجاد.

الخلق يدلّ على الصَّنعة في التَّقدير، والإنشاء يدلّ على النَّماء أو الابتداء بلا مثالٍ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة: 1/ 313.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة: 1/ 80.

أمّا الخَلقُ، فمأخوذٌ من التَّقدير، يُقال: خَلَق الأديمَ إذا قدّره على هيئةٍ مخصوصةٍ، وخَلَق الثَّوبَ إذا أبلاه، حتَّى لم يبقَ منه إلّا تقديرُه وهيئتُه. وتفرّعت منه ألفاظٌ شتّى، كلُّها ترجع إلى المفهوم المحوريِّ: التَّقدير المحسوب وفق نظامٍ أو صورةٍ سابقةٍ أو مناسبةٍ، ولهذا يُقال: المخلوق هو الَّذي قُدّر على مقدار معلومٍ[1].

فالخلقُ إذًا هو تقدير الشَّيءِ على نحوٍ مخصوصٍ، سواء أكان من مادَّةٍ سابقةٍ أم من عدمٍ، وسواء أكان ابتداعًا أم تحويلًا، لكنَّه يدلّ على خضوعِ المخلوق لنظامٍ وتصويرٍ وتحديدِ مقدارٍ، ولذلك نُعت اللّه تعالى بالخالق، أي المُقدِّر على وجه الإحكام، لا العشوائيّة أو الغلط، كما قال أهل اللُّغة: لا يُطلق اسم "الخالق" بحقٍّ على غير اللّه؛ لأنَّه وحده الَّذي يُقدّر على كمالٍ، لا تخالطه نقيصةٌ ولا عوجٌ في التَّقدير.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة: 1/ 313.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والخمسون،
سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والخمسون، سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 59 ، 802 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-648-68-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 59 : المجلد التاسع والخمسون، سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-648-68-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7377148 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"